نازك الملائكة



شظايا ورماد

تعبيراً عن اعجابي وتقديري، اهدي
هذه المجموعة من شعري الى الاديب
الاستاذ عبد الرحمن بدوي
نازك الملائكة

١٩٤٩ - ١٠ - ١٥

شظايا ورماد

مقدمة

في الشعر ، كما في الحياة ، يصح تطبيق عبارة برناردشو : « اللا قاعدة هي القاعدة الذهبية » ، لسبب هام ، هو أن الشعر وليد احداث الحياة ، وليس للحياة قاعدة معينة تتبعها في ترتيب احداثها ، ولا نماذج معينة للالوان التي تتلون بها اشياؤها واحاسيسها . ولا تناقض بين هذا الرأي وما يقسّم اليه النقّاد الشعر من مدارس ومذاهب حين يقولون « كلاسيكي ، رومانتيكي ، واقعي ، رمزي ، سرّيالي ... » فهذه كلها ليست قواعد ، وإنما هي احكام .

وقد يرى كثيرون معي ان الشعر العربي ، لم يقف بعد على قدميه ، بعد الرقدة الطويلة التي جثمت على صدره طيلة القرون المنصرمة الماضية . فنحن عموماً ما زلنا اسرى ، تسيرنا القواعد التي وضعها اسلافنا في الجاهلية وصدر الاسلام . ما زلنا نلهث في قصائدنا ونجرّ عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة ، وقرقعة الألفاظ الميتة ، وسدى يحاول افراد منا أن يخالفوا فاذ ذاك يتصدى لهم الف غيور على اللغة ، والف حريص على التقاليد الشعرية التي

ابتكرها واحد قديم ادرك ما يناسب زمانه ، فجمّدنا نحن ما ابتكر واتخذناه سنّة . كأن سلامة اللغة لا تتم إلا إن هي جمدت على ما كانت عليه منذ الف عام ، وكأن الشعر لا يستطيع ان يكون شعراً ان خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل .

ويقولون : ما لطريقة الخليل ؟ وما للغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون ؟ والجواب اوسع من ان يمكن بسطه في مقدمة قصيرة لديوان . ما لطريقة الخليل ؟ . . ألم تصدأ لطول ما لامستها الأقلام والشفاه منذ سنين وسنين ؟ ألم تألفها اسماعنا ، وتردّدْها شفاهنا ، وتعلكْها أقلامنا ، حتى مجتها وتقيأتْها ؟ منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الاسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون . لقد سارت الحياة ، وتقلبت عليها الصور والألوان والاحاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لقفا نبك وبانت سعاد . الاوزان هي هي ، والقوافي هي هي ... وتكاد المعاني تكون هي هي ؟

ويقولون : ما اللغة ؟ وأية ضرورة الى منحها آفاقا جديدة ؟ فينسون ان اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت . والواقع ان اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الايحاء ، التي تستطيع بها مواجهة اعاصير

القلق والتحرق التي تملأ انفسنا اليوم . انها قـد كانت يوماً لغة موحية ، تتحرك وتضحك وتبكي وتعصف ، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل ، فصنعوا من الفاظها « نسخاً » جاهزة ، ووزعوها على كتابهم وشعرائهم ، دون ان يدركوا ان شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لا يصنعه الف نحوي ولغوي مجتمعين . ذلك ان الشاعر باحساسه المرهف وسمعه اللغوي الدقيق ، يمد للالفاظ معاني جديدة لم تكن لها ، وقد يخرق قاعدة مدفوعا بحسه الفني ، فلا يسيء الى اللغة، وإنما يشدّها الى الامام . الشاعر أو الأديب إذن هو الذي تتطور على يديه اللغة أما النحوي واللغوي فلا شأن لهما بها . النحوي واللغوي عليهما واجب واحـدٌ هام . واجب الملاحظة واستخلاص قواعد عامة من كلام « المرهفين » من الكتاب والشعراء .

على ان الاديب الذي سنتفق على تسميته « مرهفاً » ، لابد ان يملك ثقافة عميقة تمد جذورها في صميم الادب المحلي قديمه وحديثه ، مع اطلاع واسع على أدب أمة أجنبية واحدة على الأقل ، بحيث يتهيأ له حس لغوي قوي ، لا يستطيع معه ان هو خلق ، إلا أن يكون

ما خلق جمالاً وسمواً . فاذا خرق قاعدة ، أو أضاف لوناً إلى لفظة ، أو صنع تعبيراً جديداً ، أحسسنا انه أحسن صنعاً ، وأمكن لنا أن نعد ما ابدع وخرق ، قاعدة ذهبية .

ولن تقف وظيفة الاديب المرهف ، عنـد خرق قاعدة هنا ، واضافة معنى هنالك ، وإنما سيكون عليه واجب أدق من هذا تفرضه عليه طبيعة التطور ، في اللغات الانسانية الحية . سيكون عليه ان يدخل تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظي المستعمل في أدب عصره ، فيترك استعمال طائفة كبيرة من الالفاظ التي كانت مستعملة في القرن المنصرم ويدخل مكانها الفاظا جديدة لم تكن مستعملة . ذلك لان الالفاظ تَخْلَق كما يَخْلق كل شيء يمرّ عليه إصبع الاستعمال في هذه الحياة المتغيرة ، وهي تكتسب بمرور السنين ، جموداً يسبغه عليها التكرار ، فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً ، ويصبح لها معنى واحد محدود ، يشل عاطفة الاديب ، ويحول دون حرية التعبير .

ثم ان هنالك سبباً آخر هاماً يستدعي هذا الاستبعاد للالفاظ التي كثر استعمالها ، هو أن الاذن البشرية تمل الصور المألوفة والاصوات التي تتكرر ، وتستطيع ان تجردها من كثير من معانيها وحياتها عند

وخير مثال لهذا اننا ننفر الآن بطبيعتنا من استعمال الفاظ كهذه : « عبير ، كافور ، غصن بان ، قدّ ، هلال ، صدغ ، عود ، نرجس ، لؤلؤ » وهي الفاظ كانت في بعض العصور السالفة تبدو رقيقة شعرية ، وربما كانت يوماً مما لا يستعمله إلا المجددون من الشعراء.

وقد لاحظت خلال دراستي للآداب المعاصرة ، هذه الملاحظة الطريفة . لاحظت اننا ، في هذا العصر ، قد اصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة « البدر » فنهملها اهمالاً يكاد يكون كلياً ، ونؤثر عليها لفظ « القمر » وقلّ في الشعراء المعاصرين من يرضى استعمال كلمة « بدر » إلا في الحالات النادرة ، وأنا أعترف، انني أكلف نفسي احيانا متاعب كثيرة ، لكي لا استعملها ، والتعليل السايكولوجي لهذا يسير ، فأنا وسواي نتذكر بلا شك تلك العشرات من الابيات الصماء النافرة التي تركها شعراء العصر المنطفىء الماضي ، واستعملوا فيها كلمة « بدر » حتى جردوها من جمال معناها ، واطفأوها ، وابقوا منها ظلالهم هم عليها .

ربما كان هذا كله من عمل ما يسميه علماء النفس الاقتران

Association وربما كان له عندهم تعليل آخر ، سوى ان هذا كله يتعلق بالسبب لا بواقع الأمر ، فالمهم أن الألفاظ تصدأ وتحول ، وتحتاج إلى استبدال بين حين وحين . وقد رأينا ان هذا الاستبدال وظيفة الأديب يقوم بها وهو « نصف واعٍ » لان الوعي التام قلما ينتج شيئاً ذا قيمة .

* * *

لنعد إلى حديث الأوزان .

في هذا الديوان لون بسيط من « الخروج » على القواعد المألوفة ، يلاحظ ، في قصائد مثل « جامعة الظلال » و « لنكن أصدقاء » و « مرثية يوم تافه » و « اغنية الهاوية » وسواها . وقد يحسن بي أن أؤكد للقارىء انني لا أعدّ نفسي واحدة من المرهفين الذين تحدثت عنهم في الصفحات السابقة ، سوى انني أحسست ان هذا الاسلوب الجديد في ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد . وسأحاول فيما يلي ان أبسط خاصية هذا الاسلوب ، ووجه أفضليته على اسلوب الخليل . الابيات التالية تنتمي إلى البحر الذي سماه الخليل « المتقارب » وهو يرتكز إلى

تفعيلة واحدة هي « فعولن » :

بداكِ لمس النجومْ

ونسج الغيومْ

يداكِ لجمع الظلالْ

وتشييد يوتوبيا في الرمالْ

أتراني لو كنتُ استعملتُ اسلوب الخليل ، كنت استطيع التعبير عن المعنى بهذا الايجاز وهذه السهولة ؟ الف لا . فانا إذ ذاك مضطرة إلى ان اتم بيتاً له شطران، فاتكلف معاني اخرى غير هذه ، أملأُ بها المكان ، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلي :

يداكِ لمس النجوم الوضاء ونسج الغمائم ملء السماء

وهي صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة . ألم نلصق لفظ « الوضاء » بالنجوم دونما حاجة يقتضيها المعنى إتماماً للشطر بتفعيلاته الاربع ؟ ألم تنقلب اللفظة الحسّاسة « الغيوم » إلى مرادفتها الثقيلة « الغمائم » وهي على كل حال لا تؤدي معناها بدقة ؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشة « ملء السماء » التي رقعنا بها المعنى ، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات ؟ !

هذا كله إذا نحن اخترنا الوزن « المتقارب » ، أما إذا اخترنا « الطويل» مثلاً ، فالبلية أعمق وأمرّ . إذ ذاك تطول المكازات وتتسع الرقع ، وينكمش المعنى انكماشاً مهيناً ، فنقول مثلاً :

يداك لمس النجم أو نسج غيمة

يسيّرها الأعصار في كل مَشْرِق

ليلاحظ القارىء بلادة التعبير ، وتقلص المعنى . واين هذا من تعبيرنا الأوّل :

يداكِ المس النجومْ

ونسج الغيومْ

وينبغي ألاّ ننسى ان هـذا الاسلوب الجديد ، ليس « خروجاً » على طريقة الخليل ، وانما هو تعديل لها ، يتطلبه تطور المعاني والاساليب خلال العصور التي تفصلنا عن الخليل . فالخليل قد جعل وزن البحر « الكامل » كما يلي :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

كفّاي ترتعشان أين سكينتي ؟   شفتاي تصطخبان أين هدوئي ؟

مرتكزاً إلى « متفاعلن » التي اعتاد العرب ان يضعوا ثلاثة

منها في كل شطر . وكل ما سنصنع نحن الآن، ان نتلاعب بعدد التفاعيل وترتيبها فتجيء القصيدة من هذا البحر أحياناً كقصيدة « جدران وظلال » وهذا مقطع منها :

وهناك في الأعماق شيء جامدُ
حجزت بلادته المساء عن النهارْ
شيء رهيب باردُ
خلف الستارْ
يدعى جدارْ
اواه لو هدم الجدارْ

ولو قطعناه لجاءت تفعيلاته كما يلي :

متفاعلن متفاعلن متفاعلُ
متفاعلن متفاعلن متفاعلاتْ
متفاعلن متفاعلُ
متفاعلاتْ
متفاعلاتْ
متفاعلن متفاعلاتْ

ومزية هذه الطريقة انها تحرر الشاعر من عبودية الشطرين ، فالبيت ذو التفاعيل الستّ الثابتة ، يضطر الشاعر الى ان يختم الكلام عند التفعيلة السادسة ، وان كان المعنى الذي يريده قد انتهى عند التفعيلة الرابعة ، بينما يمكنه الاسلوب الجديد من الوقوف حيث يشاء .

* * *

ثم نتحدث عن القافية ، ذلك الحجر الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت . قالوا ان العربية لغة واسعة غنية ، وان ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التي اتخذت القافية الموحدة سنّة في قصائدها ، ونسوا ان أية لغة مها اتسعت وغنيت ، لا تستطيع ان تمد «ملحمة» بقافية موحدة ، أياً كانت ، ولم ينتبهوا إلى ان ذلك كان واحداً من الاسباب التي حالت دون وجود الملحمة في الادب العربي ، مع انها وجدت في آداب الأمم المجاورة ، كالفرس واليونان .

وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التي انزلتها القافية الموحدة بالشعر العربي طيلة العصور الماضية ، وانما المهم ان نلاحظ ان هذه القافية تضفي على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع فضلاً

عما يثير في نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية . ومن المؤكد ان القافية الموحدة قد خنقت احاسيس كثيرة ، ووأدت معاني لا حصر لها في صدور شعراء اخلصوا لها . ذلك لان الشعر الكامل « الغنائي منه خاصة ، والشعر العربي غنائي كله تقريباً » لا يستطيع ان يكون إلا وليد الفورة الأولى من الاحساس في صدر الشاعر ، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى اول عائق يعترض سبيل اندفاعها ، فهي اشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم ، والقافية الموحدة قد كانت دائماً هي « العائق » ، فما يكاد الشاعر ينفعل ، وتعتريه الحالة الشعرية ، ويمسك بالقلم فيكتب بضعة ابيات، حتى يبدأ محصوله من القوافي يتقلص ، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله ، والتفكير في القافية ، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها ويمضي الشاعر يصفّ الكلمات ويرصّ القوافي دونما حسّ . ولذلك ، قلما نجد في ادبنا القديم قصائد موحدة الفكرة ، يسيطر عليها جو تعبيريّ واحد منذ مطلعها الى ختامها . فالشاعر يضطرّ إلى مصانعة القافية ، وانا اعرف شعراء يختارون القافية ، ثم يكتبون البيت وفقاً لها ، وهذا ابرز دليل على مدى طغيان هذه الالهة المغرورة .

إلا أن من حسن الحظ ، ان شعراءنا المعاصرين قد استخفوا بسلطان القافية ، وخرجوا عليه فاستعملوا نظام الرباعيـة واشباهها ، ويكاد هذا يصبح الآن امراً مقبولاً ، لا يبقي على قوافي هذا الديوان اعتراضاً ، إلا انني اعترف مع ذلك بانني اخضعت القافية أحياناً ، لأكثر ممـا فعل سواي ، فنظّمتها في قصيدة «مسامير» هكذا : «أب أ ، ب ج ب ، ج د ج ، د هـ د ، هـ و هـ .. الخ .»[1] وفي « رماد » التي استعملت فيها نظام الرباعية كما يلي : « أب ب أ » وفي « غرباء » التي استعملت فيهـا نظام « المقطوعة Stanza » وكانت القافية في كل مقطوعة تجري هكذا « أ أ ب ب أ ب » . اما قصيدة « الكوليرا » فقد كانت المقطوعة فيها اطول مما « ينبغي» قليلاً وقد جرت على هذا النسق «أ ب ب ج ج ب د د ب هـ هـ هـ» على انني حررت القافية تحريراً تاماً في قصائد مثل « مرّ القطار » و « نهاية السلّم » و « خرافات » و « جدران وظلال » وسواها ، فتركتها تتكرر كما يشاء السياق دون تقيد بنظام معين ، ولعل هذه هي الخطوة الوحيدة التي تسبق الشعر المرسل Blank Verse . وان

(١) تكرار الحرف يعني تكرار القافية

كان لابدّ من اشارة إلى قصيدة « الجرح الغاضب » فلأقرر ان الاسلوب الطريف في تقفيتها مقتبس مباشرة عن الشاعر الاميركي « ادكار آلان بو » في قصيدته البديعة « Ulalume » .

* * *

قلت ان اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الايحاء ، لان كتّابها وشعراءها لم يعتادوا استغلال القوى الكامنة وراء الألفاظ استغلالاً تاماً ، إلا حديثاً ، فقد بقيت الألفاظ طيلة قرون الفترة الراكدة « المظلمة .. » تستعمل بمعانيها الشائعة وحدها . وربما كان ذلك هو السبب في جنوح الجمهور العربي جنوحاً شديداً الى استنكار المدارس الشعرية التي تعتمد على القوة الايحائية للألفاظ ، كالرمزية ، والسرّيالية ، على اعتبار ان هذه المدارس تحمّل اللغة اثقالاً من الرموز والاحلام الباطنية والخلجات الغامضة ، والاتجاهات اللاشعور ، ومثل ذلك مما لا تنهض به إلا لغة بلغت قمة نضجها .

والواقع ان القارىء العربي يتهرب من الشعر الرمزي ، لان اللغة تجابه التعبير عن مثل هذه الاحاسيس المبهمة أول مرة ، فليس غريباً ان تتلكأ قليلا ، وتتوتر . اما تعليل الأمر بان ذاتيـة العربي

تنفر بطبعها من الرموز ولا تجد مجالا في الدهاليز التي تتلوى وراء الحس، والعوالم الخفية التي يعسر ادراكها، فأمرٌ لا اعتقد به أنا على الأقل..

ذلك لأن النفس البشرية عموماً، ليست واضحة، وانما هي مغلفة بالف ستر. وقد يحدث كثيراً ان تعبر الذات عن نفسها باساليب غامضة ملتوية، تثيرها آلاف الذكريات المنطمسة الراكدة في اعماق العقل الباطن منذ سنوات وسنوات، ومئات الصور العابرة التي تمرّ فيحدّق فيها العقل الواعي ببرود وينساها نسياناً كلياً فيتلقفها العقل الباطن ويكنزها مع ملايين الصور التافهة، ويغلق عليها الباب، حتى إذا آنس غفلة من العقل الواعي، اطلقها صوراً غامضة لا لون لها ولا شكل.

وليست مثل هذه الاحاسيس الغريبة وقفاً على انسان دون انسان، سوى ان التعبير عنها يختلف. فالانسان العادي يراها في احلامه. اما الفنان فيعبر عنها بفنه واحلامه معاً. وما دمنا لا نستغرب حين نستيقظ احياناً في اعماق الليل وقد حلمنا اننا نركض حُفاة، في قبو قديم، كان جزء من دار خربة كنا نسكنها منذ ثماني عشرة

سنة كاملة ، لم نعد اليها خلالها مطلقاً ، ومع ذلك لاحظنا في الحلم ادق الاشياء المنطمسة التافهة التي شاهدناها في السنين الغابرة : ذلك المسمار القديم المعوج على الجدار ، وقد تدلى منه الحبل الباهت القديم نفسه . ثم هناك ، على ارتفاع امتار ، انبوب المياه الذي كنا في طفولتنا نتسلقه احياناً . اقول : ما دمنا لا نستغرب ذلك في حُلُم فلماذا لا نتقبله حين يصفه شاعر في قصيدة ؟ ان الشاعر الذاتي الذي يراقب نفسهُ ، كما لو كان يراقب بحراً زاخراً لا شطئان له ولا قرار ، لا يستطيع ان يتهرب من مثل هذه الصور الباهتة الممحوّة ، فهي تلاحقه ابداً ، ولا بد له من وصفها في شعره . والابهام جزء اساسي من حياة النفس البشرية ، لا مفرّ لنا من مواجهته ان نحن اردنا فنا يصف النفس ، ويلمس حياتها لمسا دقيقاً .

ومع ذلك فالابهام ليس مقصوداً لذاته ، وانما هو صورة من صور الحياة ، ولذلك يندر ان نجد شاعراً ، كل شعره معقّد ملتو . اما الذين يتعمدون تعقيد شعرهم ، فقد يكون ألدُس هكسلي التمس لهم بعض العذر حين قال ان المعاصرين يهربون الى الابهام خوفاً من الوضوح الذي هو الصفة الاساسية في الادب الشعبي .

وليس قصدي من هذا التعليل للتعبير الرمزي والسرّيالي ، آن اقول ان طائفة من قصائد هذه المجموعة تنتمي الى هـذه المدرسة او تلك . وإنما اود أن امهّد لطائفة من القصائد التي عالجت فيها حالات تتعلق بالذات الباطنية احيانا ، وباللاشعور أحيانا ، وهي حالات لم يقف عندها الشعر العربي إلا نادراً ، فهو قـد وقف نفسَهُ على معالجة السلوك الخارجي للانسان .

ففي قصيدة « الخيط المشدود في شجرة السرْو » ، حاولت رسم صورة شعرية للانفعالات والخواطر التي اعترت شابا فوجيء بنبأ موت حبيبته . وسيلاحظ ان القصة العاطفية في هذه القصيدة ثانوية الأهمية بالنسبة للخيط المشدود في الشجرة وما كان له من صلة وثيقة بشرود الشاب المصدوم ، وحالة الهذيان الداخلي التي اعترته . فعقدة القصيدة تعتمد على الحالة التي تعتري انسانا يتلقى نبأ مثيراً فاجعا ، لا يتوقعه . فهو إذ ذاك يصاب بشرود كبير عميق ، ويبـدو انه لم يسمع النبأ . ويتلفت حوله فتعلق عيناه باول شيء تافه تصادفانه ، فيغرق في التفكير فيه . وقد كان الشيء التافه في هذه القصيدة هو الخيط . كان مشدوداً في شجرة سرو تقوم عند الباب ، فانشغل

العقل المصدوم بالتفكير فيه ، وبقي منشغلاً حتى عاد اليه وعيه وادرك فداحة المأساة التي نزلت به .

ولن يعثر القارىء على شيء مثير في قصيدة « مرّ القطار » ان هو توقع أن يجد فيها وصفاً للقطار أو لرحلة في القطار. فقد كان غرضي الاساسي من كتابتها ان اعبر عن الشعور الغامض الذي يحسه المسافر ليلاً بالدرجة الثالثة من القطار. فهناك حالة التعب الكلي التي يجد فيها المرء نفسه ، مشوبة بلون من الكسل والارتخاء . وهناك صوت عجلات القطار الرتيب الذي لا يتغير ، ولون الغبار المتراكم على كل شيء . على الحقائب ، وعلى الوجوه والثياب . ثم هناك منظر المسافرين الغرباء وقد جمعتهم عربة القطار صفوفاً . والقطار يصفر بين حين وحين فيثير احساساً غريباً في النفس . كل ذلك والسكوت يغمر العربة ، التي نام اغلبية الموجودين فيها وهم جالسون على مقاعدهم . وبين فترة واخرى ، يصدف ان يتثاءب مسافر غريب لا نعرفه ويهتف بملل وبرود « كم الساعة الآن ؟ » او « متى نصل ؟ » او « اين نحن ؟ » أو مثل ذلك من العبارات . فاذا أحسّ قارىء « مرّ القطار » ببعض هذا الجو كان ذلك حسبي .

اما قصيدة « الافعوان » فقد عبرت فيها عن الاحساس الخفي الذي يعترينا احياناً بان قوة مجهولة جبارة ، تطاردنا مطاردة نفسية ملحّـة . وكثيراً ما تكون هذه القوة ، مجموعة من الذكريات المحزنة، او هي الندم ، او عادة عمقتها في سلوكنا الخارجي ، او صورة مخيفة قابلناها فلم نعد نستطيع نسيانها ، او هي النفس بما لها من رغبات وما فيها من ضعف وشرود ، أو أي شيء آخر ... فالامر متوقف على ذاتية القارىء ، وليس يعنيه أن أعيّن « افعواني » انا ، فذلك أمر ثانوي، وإنما المهم، ان هذا الافعوان يطاردنا باستمرار وسدى نتهرب منه ، حتى إذا لذنا باللابرنث Labyrinth « وهو تيه معقـد المسالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتواء طرقه وكثرة ابوابه » ، حتى إذا استعملنا طريقة الايحاء الذاتي كما صنعت أنا في القصيدة :

انه لن يجيءْ
لن يجيء وان عبر المستحيلْ
ابداً لن يجيءْ

فالنتيجة الحتمية، انه يجيء أخيراً،وسرعان ما نصرخ«انه جاء !»

وفي قصيدة « خرافات » يجد القارىء لونا من الشعور احسه ، ويحسه كثيرون ، كلما ساد السكون مكاناً . فاذ ذاك نسمع بأذن الروح ألف قصة تقصها الاشياء الراكدة حولنا . فالسياج يتكلم ويعيد ما كانت عنده من ذكريات انطمست وماتت ، و « قصاصة الورق الممزق في الخرائب » تحكي اقاصيص مثيرة عن حوادث بعيدة منسية . و « الغبار » يقصّ قصة النسيان الذي تذره العصور على كل شيء ، و « مقاعد الغرف القديمة » تحدّث عن جيل من الناس مرّ بها يوماً ثم انتقل الى أفق بعيد مجهول ، وهكذا ... حتى يكاد الانسان الحساس لا يرى شيئا إلا ويحسه يغمغم ويهمس ويطارده بالكلام .

* * *

والذي اعتقده أن الشعر العربي ، يقف اليوم على حافة تطور جارف عاصف لن يبقي من الاساليب القديمة شيئا ، فالأوزان والقوافي والاساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعا ، والألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة واسعة من قوة التعبير ، والتجارب الشعرية « الموضوعات » ستتجه اتجاها سريعا الى داخل النفس ، بعد

ان بقيت تحوم حولها من بعيد . اقول هذا اعتماداً على دراسة بطيئة لشعرنا المعاصر واتجاهاته . واقوله لانه النتيجة المنطقية لاقبالنا على قراءة الآداب الاوربية ودراسة احدث النظريات في الفلسفة والفن وعلم النفس . والواقع ان الذين يريدون الجمع بين الثقافة الحديثة وتقاليد الشعر القديمة ، اشبه بمن يعيش اليوم بملابس القرن الاول للهجرة ، ونحن بين اثنين : اما ان نتعلم النظريات ونتأثر بها ونطبقها ، أو ألاّ نتعلمها اطلاقاً .

وقد يفيدنا ان نتذكر دائما ان التطور الذي يحدث في الفنون والآداب في عصر ما ، اكثر ما يكون ناشئا عن التقاء أمتين أو اكثر . فقد يحدث ان امة معيّنة ، تخمد قابلياتها وتركد قرونا كاملة بتأثير عوامل خاصة . ثم يأتي عليها زمن متوثب يوقظها فتتململ وتتحرك ، وترنو الى ما حولها ، وتبدأ باستيعاب ما فاتها من ثقافات ، فتستفيد من تجارب امة مجاورة بقيت نشيطة فاضافت الى الفكر الانساني فصولاً لامعة . فما يمضي نصف قرن حتى تنتهي الأمة التي كانت راكدة من مرحلة الاستيعاب ، وتبدأ حيث وقفت الامة المجاورة . تبدأ بالاضافة . وهذا هو الاسلوب الذي يتبعه خط

التطور في تاريخ الأمم ، بحيث لا نستطيع ان نعثر على مذهب ، او اختراع ، او نظرية ، توصلت اليها أمة بعينها ، دون ان تستفيد من تجارب الأمم الأخرى .

* * *

آخر ما اود ان اقوله في هذه المقدمة ، انني أومن بمستقبل الشعر العربي ايمانا حاراً عميقا . أومن انه مندفع بكل ما في صدور شعرائه من قوى ومواهب وإمكانيات ، ليتبوأ مكانا رفيعا في أدب العالم .

والف تحية لشعراء الغد ؟

٣ - ٢ - ١٩٤٩ نازك الملائكة

كبرياء

لا تسلني عن سرّ أدمعيَ الحرّى فبعض الأسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الحسّ لغزاً وان يكن مجروحا

بعضها ان كشفته يستحل حبّاً مُهاناً يموت موتاً حزينا
بعضها بعضها تكبّر أن يكشف عما وراءه أو يبينا

ومئات الأسرار تكمن في دمعة حزنٍ تلوح في مقلتينِ
ومئات الألغاز في سكتة تهتزّ خلف انطباقة الشفتينِ

وعيون وراء أهدابها أشباح يأس في حيرة وانكسارِ
تؤثر الظل والظلام ارتياعاً من ضياء يبوح بالاسرارِ

وقلوب تضمّ اشلاءها فوق جراحٍ وأدمعٍ وذهولِ
تؤثر الموت كبرياءً ولا تنطق بالسرّ .. بالرجاء المجهولِ

وشفاه تموت ظمأى ولا تسأل أين الرحيق ؟ أين الكأسُ ؟
ونفوس تحس أعمق احساسٍ وتبدو كأنها لا تحسُّ ؟

واكفّ تودّ لو تمزّقتْ ، لو قتلت ، لو تمرّدت في جنونِ
لو رأتها الحياة قالت : هدوءٌ وادعٌ في براءةٍ وسكونِ

لو رأتها ، ماذا ترى ؟ كل شيء مغرق خلف داكنات الستورِ
ألف ستر ، وألف ظلّ من الكبت عميق ، وألف قيد ونيرِ !

لا تسلني ، لا تجرح السر في نفسي ، ولا تمحُ كبرياء سكوتي
لو تكلمتُ ، كان في كل لفظ قبر حلمٍ وفجر جرح مميتِ

لو تكلمتُ ، كيف ترتعش الاشعار حزناً وترتمي في عياءِ
لو كشفت السرّ العميق فماذا يتبقى مني سوى الاشلاءِ ؟

لو تكلمتُ ، رعشة في حياتي وكياني تلحّ أن أتكلم
وسكوتي العميق يكتم أنفاسي وقلبي يكاد أن يتحطم

لو تكلمتُ ، لو سكتُّ ، نداءان عميقان كالحياة استمارا
تتلاقى عليهما كل أسراري فأبقى شعراً وحباً ونارا

وتظل الحياة تخلق من وجهي قناعاً صلداً يفيض رياءَ
جامداً ، بارداً ، أصماً ، ويخفي بعض شيء سميتُهُ كبرياءَ

١٩٤٨

يوتوبيا الضائعة

صدىً ضائع كسرابٍ بعيد يجاذب روحي صباحَ مساءْ
أنام على رجعه الأبديّ ويوقظني برقيق الغناءْ
صدىً لم يشابهه قطّ صدىً تغنيه قيثارة في الخفاءْ
اذا سمعته حياتي ارتمت حنيناً وناديته ألف نداءْ
يموت على رجعه كل جرح بقلبي ويُشرق كل رجاءْ
ويمضي شعوريَ في نشوة يخدّره حلم يوتوبيا

ويوتوبيا حُلُم في دمي أموت وأحيا على ذكره
تخيلته بلداً من عبير على أفقٍ حرت في سره
هنالك عبر فضاء بعيد تذوب الكواكب في سحره
يموت الضياء ولا يتحقق ما لونه ! ما شذى زهره ؟
هنالك حيث تذوب القيود وينطلق الفكر من أسره
وحيث تنام عيون الحياة هنالك تمتد يوتوبيا

ويوتوبيا حيث يبقى الضياء ولا تغرب الشمس أو تغلسُ
وحيث يظل عبير البنفسج حياً ولا يذبل النرجسُ
وحيث تفيض الحياة رحيقاً نميراً ولا تفرغ الأكؤس
وحيث تضيع حدود الزمان وحيث الكواكب لا تنعس
هنالك الحياة امتداد الشباب تفور بنشوته الانفس
هنالك يظل الربيع ربيعاً يظلل سكان يوتوبيا

هنالك حيث وعت شهرزاد اقاصيص غنت بها ألف ليله
وحيث ديانا تسوق الضياء ونارسيس يعبد في الشمس ظله
هنالك يوتوبيا في الضباب على شفق لم تر العين مثله
يحفّ بها أبد من عطور ويمنحها ألف لحن وقبله
وترقد في سكرة لا تحدّ على رجع أغنية مضمحله
على شاطىء كضياء النجوم أسميه شاطىء يوتوبيا

هنالك طوّفتُ ذات مساء   وكان معي هيكل كالسرابْ
أحس خطاه على الرمل لكن   أرى غير شيء وبعض سحاب
وكنت أحس بجسمي حياة   تطير بروحي فوق التراب
وكان أمامي ممرّ غريب   تغلّفه دَفَقَات الضباب
ويمتد عن جانبيه خليج   وبعض جزائرَ بعض هضاب
وفي حُلُمي صحت أين أسير؟   فردّ صدىً: قرب يوتوبيا!

وأحسست في قعر روحي جنوناً   وشوقاً عميقاً كبحر عميقْ
يريد انتهاء الطريق الغريب   إلى البلد المتمنّى السحيق
إلى ذلك الأُفُق الأزليّ   وحيث يعيش أُولو الرقيق
أسير أسير ولا شيء يبدو   أماميَ غير امتداد الطريق
على ظمأ لوجود عجيب   يذوب عليه الندى والبريق
على ظمأ صارخ وأخيراً   صحوت ولم أرَ يوتوبيه

وفي حُلُم آخرٍ كنت أمشي — على شاطىء من حصىً ورمالْ
غريب غريب بلون الأثير — يحفّ به افق كالخيال
تناهى باقدامي المتعبات — الى صخرة رسخت كالمحال
تسلقتها أمل مضمحلّ — فقد تتزحلق حتى الظلال
وقفت على قدميها أنوح — على حُلُم بائس ان يُنال
وساءلت ماذا ترى خلفها ؟ — فقال ليّ الرمل : يوتوبيا !

وفي حُلم ثالثٍ خلت نفسي — على بابها المرمريّ الكبيرْ
أحدق في نشوة لا تَحدُّ — أكاد أجن .. أكاد أطير !
أحقاً أرى الباب ؟ ألواحه — تلوح مبطّنة بالحرير
تقدمت واجفة في خشوع — وفي مقلتي ومض حلم قرير
أدق على الباب في نشوة — ولا ردّ غير السكون المرير
فصحت بصوت حبيس: دعوني — أموت على باب يوتوبيا

ومرتْ حياتيَ مرّت سدىً ولا شيء يطفىء نار الحنينْ
سدى قد عبرت صحارى الوجود سدىً قد جررت قيود السنين
وما زلت أذرع صمت القفار واسأل عن سرها العابرين
يطول على قلبي الانتظـــار وأغرق في بحر يأس حزين
أحاول أن أتعزى بشـــيء بغاب .. بوادٍ .. بظلة تين
دقائقَ ... ثم اخيب وأهتف : لا شيء يشبه يوتوبيـــا

سأبقى تجاذبني الامنيات الى الأفق السرمديّ البعيد
وأحلم أحـــلم لا أستفيـــق الا لأحلم حلماً جـــديد
أقبّل جدرانها في الخيال واسأل عنها الفضاء المديد
واسأل عنها انسكاب العطور وقطر الندى وركام الجليد
واسأل حتى يموت السؤال على شفتيّ ويخبو النشيد
وحين أموت .. أموت وقلبي على موعدٍ مع يوتوبيـــا

١٩٤٨

نوارخ قديمة وجديدة

لنسرٍ كان أمس وماتْ		منذ بضع مئات السنين
مسحت ذكره السنوات		وطوته مع الميتـــين

وبحثنا زمانـــاً طويلْ		عن كواكبه الآفلاتْ
واستعرنا يـــد المستحيل		لنعيد إليـه الحيــاة

وأهبنا بركب العصورْ		أن يعود على بدء
علنـا نستعيد الشعور		فرجعنـــا بلا شيء

كم شققنا هناك الظلام		وعبرنا سكون الركودْ
ونبشنا ركام العظام		لم نجد شيئنا المفقود

وراينا هناك جباهْ		لا ترى فهي عمياءُ
وعيوناً طوتها الحياه		صمتت فهي خرساء

ورأينا رفات قلوبْ		حنطتها يد الذكرياتْ
وسدى حاولت أن تؤوب		معنا فهي .. فهي رفات !!

ورأينا شفاهاً خوت		لم تعد تشتكي أو تجوعْ
وأكفاً ذوت وانطوت		لم يعد لأساها دموع

وسألنا عن الأمس		فعثرنا على تابوت
وهناك على الرمس		يجثم الزمن المبهوت

ورجعنا الى التقويم		علنا نخدع الأيام
فسمعنا صُراخ الهشيم		خلف سخرية الأرقام

وراَينا الغـــد المنتظرْ ساحباً نصفه المشلولْ
ساحباً نصفه المحتقر نصفه الجامد المملول

وهناك انطوى سفْرُ واختتمنا النشيد القديم
وغـداً ينبت العمر فوق جرح الزمان الاليم

ويتيه صدى الأمسِ في مدار الزمان العميق
ونحسّ على الكأسَ فورة الحُلم المستفيق

١٩٤٨

صراع

أحبُّ .. أحب .. فقلبي جنون		وسورة حب عميق المدى
أحب فروحيَ حسٌّ قريب		يضيع لديه وجودي سدى
حياتيَ في العالم الشاعري		لهيب من الحب ان يخمدا
وجسميَ قلب خفوق خفوق		سيلبث ملتهباً موقدا

واكره اكره قلبي لهيب		وسورة مقت كبير كبيرْ
وروحيَ مستعر الاحتقار		يرى الكون أفقاً وضيعا حقير
حياتي تحسّ وجيب الحقود		على عالم مغرق في الشرور
ونفسيَ في ثورة لا تقرّ		تحقّر ما حولها من صخور

احب واكره .. حبي شقاءْ
احب واكره .. كرهي ألم
ففيم اعيش ؟ سئمت البقــاء
وشاق حياتيَ صمت العدم

*

وابكي .. وابكي .. فدمعي لهيب   يحطم روحي ويُذوي المنى
تعذبني حَيرتي في الوجود   واصرخ من ألمي : من أنا ؟
مُنحت عيوناً تحب الدموع   وقلباً يحبذ ان يُطعنا
وروحاً تعثر فيما يريـــد   فحبّ الظلام وعاف السنا

وأضحك من كل مافي الوجود   وفي ضحكي مرح ساخرُ
فقلبيَ سخرية واحتقـار   يثيرهما العــالم العاثر
أحدق من قتي في الثرى   فيضحكني دوده الناخر
واضحك ضحكة ربٍ كئيب   تمرد مخلوقـه الكافرُ

وابكي واضحك .. دمعي دماءْ
وابكي واضحك .. ضحكي ندم
فقيم امرّغ تحت الضيـــــاء
فؤاداً سيرقد تحت الظلم

*

اريد واجهـــل ماذا أُريد اريد وعاطفتي لا تريد
احب السماء ولون النجوم وامقتها كل فجر جديد
اريد وأشعر أني أحس ويسخر مما احس الوجود
وارغب في حلم غامض فليس له هيكل او حدود

وأنفر من كل مافي الوجود وأهرب من كل شيء أراه
ففي عمق نفسيَ صوت غريب يعلّم قلبي ازدراء الحيـــاه
ويصرخ بي: اهربي اهربي ويتعب احساس روحي صداه
فاهتف يا عالمي : لا أريد ! وتصرخ بي ذكرياتي:النجاه!

أريد وانفر تحت السماء

فارسم كل صراعي نغم

ومن أجل لحني سأرضى البقاء

وعار الحيـــاة وذل الألم

*

احب واكره ماذا أحب واكره ؟ اي شعور عجيب ؟

وابكي واضحك ماذا ترى يثير بكائي وضحكي الغريب ؟

اريد وانفر أي جنون حياتي ؟ أي صراع رهيب ؟

لماذا أغني ؟ لماذا أعيش ؟ ومنذا أصارعه ؟ من يجيب ؟

١٩٤٧

عندما انبعث الماضي

أمسِ في الليل وكانت صور الأسرار شتى
تتصبى حاضري الغافي وكان الأمس ميتا
خلتني كفنته ذات مســــاءِ
وتحصنت بـــــدعوى كبريائي
سمعتْ روحيَ في اغفـــاءة الظلمة صوتا
لم يكن حلْماً خرافيّ الستــــور
بعثتــــه رغبـــة خلف شعوري
كان شيئاً.. كان في صمت الدجى صوتكَ أنتا

ذلك الصوت الذي يعرفه سمعي مليّا
صوت ماضيَّ الذي مات وما خلّف شيا
غـــير أشتات احتقار باهتِ
رسبت في قعر قلبي الصــــامت
غير اشتات ادّكارات لحب كان حيّا
منـــذ أعوام .. وقد فات ومرّا
منذ أعوام .. وصار الآن ذكرى
لفها الماضي وواراها التراب الأبديا

ذلك الصوت الذي مرّ على سمعيَ أمسِ
كان يوماً رغبة تجهش في أعماق نفسي
كان حلماً ذائباً في عبراتي
كان حباً تائهاً في أمنياتي
ثم حطمت على ذكراه قيثاري وكأسي
عندما ضيعته تحت الضباب
وتعثرت بأشلاء شبابي
وتهاويت على جثة أحلامي وأنسي

ومضى عامان مطوطان مَرّا في شحوب

كان عمري خربة يصبغها لون الغروب

تذرع الاشباح في الصمت دجاها

ويعيش البوم في ظلّ أساها

كلما جالت بيَ الحيرة في القبو الغريب

مدت الذكرى ذراعيها إليّا

لونها يخلق من دعبيّ دنيا

ويثير الوتر الميت في قلبي الكئيب

وانقضى عامان ملعونان من أعوام حبي
مزّقت روحي أظفارها روحي وقلبي
لم تدع حتى شراعاً من رجاء
ابداً لم تبـق الا كبريائي
وأباديد ادّكارات لها قسوة ذئب
عرفت روحيَ فيها لون أمسي
أمسيَ الراسب في اعماق حسي
عرفت فيها صدى الصوت الذي غمغم قربي

انه الأمس اذن عاد ليحيي من جديد
إنه عاد اذن يطرق أبواب شرودي
أسفاً يا شبحي عــد للتراب
لم تعد تملك ان تطرق بابي
لم يعد يربطنـا الا ركام من حدود
هوة أعمق من ذنبك ! ماذا ؟
قد تبقى لك عندي غير هذا ؟
غير ذكرى عبرت يوماً ومرّت بوجودي

مر القطار

الليل ممتدّ السكون الى المدى
لا شيء يقطعه سوى صوت بليدْ
لحمامة حيرى وكلب ينبح النجم البعيد
والساعة البلهاء تلتهم الغدا
وهناك في بعض الجهات
مرّ القطار
عجلاته غزلت رجاءً بتُّ انتظر النهار
من أجله . . . مر القطار
وخبا بعيداً في السكونْ
خلف التلال النائيات
لم يبق في نفسي سوى رجع وهون
وانا احدق في النجوم الحالمات

أتخيلُ العربات والصفّ الطويل
من ساهرين ومتعبين
أتخيل الليل الثقيلْ
في أعين سئمت وجوه الراكبين
في ضوء مصباح القطار الباهتِ
سئمتْ مراقبة الظلام الصامت
أتصور الضجر المرير
في أنفس ملّت وأتعبها الصفير
هي والحقائب في انتظار
هي والحقائب تحت أكداس الغبار
تغفو دقائق ثم يوقظها القطار
ويطلّ بعض الراكبين
متثائباً ، نعسان ، في كسل يحدق في القفار
ويعود ينظر في وجوه الآخرين

في أوجه الغرباء يجمعهم قطارٌ
ويكاد يغفو ثم يسمع في شرود
صوتاً يغمغم في برود
« هذي العقارب لا تسير !
كم مرّ من هذا المساء ؟ ! متى الوصول ؟ »
وتدق ساعته ثلاثاً في ذهولْ
وهنا يقاطعه الصفير
ويلوح مصباح الخفير
ويلوح ضوء محطة عبر المساء
إذ ذاك يتئد القطار المجهدُ
. . . وفتىً هنالك في انطواء
يأبى الرقاد ولم يزل يتنهدُ
سهران يرتقبُ النجومْ
في مقلتيه برودة خطّ الوجوم

أطرافها . . في وجهه لون غريبْ
ألقت عليه حرارة الأحلام آثار احمرارْ
شفتاه في شبه افترار
عن شبه حلم يفرش الليل الجديب
بخفيف أجنحة خفيّات اللحون
عيناه في شبه انطباق
وكأنها تخشى فرار اشمة خلف الجفون
أو أن ترى شيئاً مقيتاً لا يطاق
هذا الفتى الضجر الحزين
عبثاً يحاول أن يرى في الآخرين
شيئاً سوى اللغز القديم
والقصة الكبرى التي سئم الوجود
أبطالها وفصولها ومضى يراقب في برود
تكرارها البالي السقيم

هذا الفتى . . . . .

وتمرّ أقدام الخفيرْ

ويطلّ وجه عابس خلف الزجاج

وجه الخفير !

ويهزّ في يده السراج

فيرى الوجوه المتعبه

والنائمين وهم جلوس في القطار

والأعين المترقبه

في كل جفن صرخة باسم النهار

وتضيع أقدام الخفير الساهد

خلف الظلام الراكد

مرّ القطار وضاع في قلب القفار

وبقيت وحدى أسأل الليل الشرود

عن شاعري ومتى يعود ؟
ومتى يجيء به القطار ؟
أتراه مرّ به الخفير
ورآه لم يعبأ به .. كالآخرين .. ؟
ومضى يسير
هو والسراج ويفحصان الراكبين
وأنا هنا مازلت ارقب في انتظار
وأودّ لو جاء القطار

١٩٤٨

عروق خامدة

ياحبّ لم تبق لنا ذكرى   لم يطوها الموتُ
كان لنا ماضٍ وقد مرّا   وافه الصمت

نحن هنا وهمان لالونا   لاصوت لاشكلا
سرابُ لاشيئين . لا معنى   لا لفظ لا ظلا

تدفعنا الآهات والاحزانْ   وما لنا مأوى
يا ليتنا نظفر بالنسيان   أو نمنح السلوى

نبكي فلا تحنو علينا يد   بربتة من حنان
نحن هنا اللاأمس واللاغد   نحن هنا اللاكيان

أعيننـــا أفق بلا لونٍ لا يعكس الاشياءْ
شفاهنـــا لحم بلا لحنْ وروحنـــا أشلاءْ

ونلتقي فتسكت النجوى وتُكتم الانفاسْ
وضحكة تبدو بلا جدوى ينقصها الاحساسْ

وتلتقي الكفان أين الرغابْ ورعشة الاشواقْ
أصابع ميتة الأعصـــاب ليس لها أعماقْ

وأعين فارغة الأحداقْ ليس لهـــا قلبٌ
الشرق فيهـــا أسود الآفاق ويلهث الغربْ

وأذرع صماء كالأحجـــار فارقهـــا الشوقْ
جامدة لو لامستها النـــار لم يستفق عرقْ

ونلتقي ينقصنـــا شيء ُ شيء وراء الروحْ
شفاهنـــا ينكرها الضوء وليلنـــا مجروح

ونلتقي تفصلنـــا آلامْ وأدمع خرسُ
يعزّ ان تجمعنا الأيام وبيننـــا الأمس

وبيننا هاوية الذكرى تقذف بالاشباحْ
سدى أريد الضفة الأخرى قد غرق الملاح
١٩٤٨

الجرح الغاضب

أغضبُ اغضب ان احتمل الجرح الساخرْ
جرح قد مرّ مساء الأمس على قلبي
جرح يجثم كالليل المعتم في قلبي
يجثم أسود كالنقمة في فكر ثائر
جرح لم يعرف انسان قبلي مثله
ان يشكوَ قلب بشري بعدي مثله
ألظلمة في أمسي المطويّ أحسته
ومضت تهمس في صمت الليل : من الجاني ؟
حتى الأبديــة والآفاق احستّه
وتناسى .. لم يعبأ .. لم ينتبه الجاني !

*

أغضب تغضب لي همسات الليل الصامت

وتحيل الجوّ الواجم صرخة جبار

وتقول الانجم هذي نقمة جبار

ويثور بقلب الأبديـــــة جرحٌ ساكت

أغضب يرتعش الموج معي تحت القمر

ويضج وتبلغ ثورته سمع القمر

ويُجنّ الغيم الأسود في عرض الأفق

ويلفّ الشاطىءَ ثوب حداد كجنازه

يتحول صمتي ناراً تصرخ في الأفق

واغني رقة إحســاسي لحن جنازه

*

**

أمسي ، في أمسي قد دُفنت أشلاء غدي
كانت ، لم يدر بها أحد ، شبه جريمه
الجرحُ النديان سيشهد أي جريمه !
كيف على الأرض تساقط حلمي بين يدي

كيف المقدور مضى نزقاً يقتل قلبا ؟
وتبقت بضعة أشلاء كانت قلبا
وتبقت ذكرى مطفأة كانت أمسا
وتبقت أنات حيرى كانت لحنا
جدران عارية كانت يوماً أمسا
أصداء في غارٍ خاوٍ كانت لحنا

*

ومن الأعماق تصاعد صوت مخنوقُ

يهتف في حزن ، في جزع : كيف أبوح ؟

ليت الجرح المظلوم الى الليل يبوحُ !

قد يثأر لي مطر ورعود وبروق

ورأيت على الأفق المخضوب بفيض دمي

شبحاً تفتر على فمه قطرات دمي

عيناه الزرقاوان مساءا أهوال

ويداه السوداوان ذراعا عفريت

شبح مجنون أيقظ عاصف أهوال

وأحال دياجيرى أحجية عفريت

*

أغضبُ للجرح المختنق الشاكي أغضبْ
سيجنّ معي الصبر المذبوح المرتعشُ
ستجن معي اللعنة والحقد المرتعش
ستثور معي الذكرى ستثورُ ولا مهربْ
لا مهربَ من جرح قد مرّ على قلبي
جرح يصرخ كالجوع اليائس في قلبي
الظلمة في صمت الآفاق أحسّته
ومضت تسأل في قلب الليل : من الجاني ؟
حتى القمرية والأشجار أحسّته
وتضاحك ، لم يشعرْ ، لم ينتبه الجاني !

١٩٤٨

الباحثة عن الغد

« غداً نلتقي » نبأ في الزمانْ   رَواهُ الحياة
تلاشى ولم تروهِ شفتانِ   تــلاشى وتاه

وجاء غد ثم ولى ومـات   وعـاد ضبــابا
فأين « غداً نلتقي » ياحياة   أعادت ترابا ؟

« غداً نلتقي» ثم مات الزمانْ   وضاع المكان
وهل يلتقي أبداً عاشقان   على لا كيان

وكان لنا موعد فانطوى   صــداه وماتْ
وكم كوكب في الدياجي هوى   وعاد رُفات

وكانت انا قصة كالبشرْ   نسيج السنينْ
فأسفر آخرها عن قـــدر   وذاب الرنين

وكنا نمرّ فترنو الحياة   وتومي الينــا
وها نحنُ تختصم الذكريات   على شفتينــا

ويطردنا الأمس من كل ما   ملكناه يومـا
سوى حاضرٍ مغرقٍ في الدما   ويقطر سمّــا

ونسمع بعضـاً وراء المساء   من المشرقِ
صدى لفظتين يجوس الفضاء   « غداً نلتقي »

ويأتي غد في أسىً وشرودْ   بصمتٍ طويلْ
بألف صدىً ساخرٍ في برود   وراء النخيـل

«غداً نلتقي» ويسود السكون سكون الخريف
واسمع تحت المساء الحنون صراخاً عنيف

وقهقهة ، فظة ، بارده كجوّ القبور
ترددها شفة حاقده وراء العصور

« غداً نلتقي » وتمطّ النغم وتسخر مني
ويبقى غدي تائهاً في الظُلم يفتش عني

١٩٤٨

الأفعوان

أين أمشي ؟ مللت الدروبْ
وسئمت المروجْ
والعدوّ الخفي اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي ، فأين الهروب ؟
الممرّات والطرق الذاهبات
بالأغاني الى كل أفق غريب
ودروب الحياة
والدهاليز في ظلمات الدجى الحالكات
وزوايا النهار الجديب
جبتها كلها ، وعدوّي الخفيّ العنيد
صامد كجبال الجليد
في الشمال البعيد

صامد كصمود النجومْ
في عيون جفاها الرقادْ
ورمتها اكفّ الهموم
بجراح السهاد
صامد كصمود الزمن
ساعةَ الانتظار
كلما أمعنتْ في الفرار
خطواتي تخطى المُدُنْ
وآتاني بما حطمته جهود النهار
من قيود التذكر . . . لن أنشد الانفلات
من قيودي . وأي انفلات
وعدوّي المخيفْ
مقلتاه تمجّ الخريف
فوق روح تريد الربيع

ووراء الضباب الشفيفْ
ذلك الأفعوان الفظيع
ذلك الغول اي اعتناق
من ظلال يديه على جبهتي البارده
أينْ أنجو وأهدابه الحاقده
في طريقي تصبّ غداً ميّتاً لا يطاق ؟

*

أين امشي ؟وأي انحناءْ
يغلق الباب دون عدوّي المريب
إنه يتحدّى الرجاء
ويقهقه سخرية من وجومي الرهيب
إنه لا يحسّ البكاء
أين . . أين أغيب ؟
هربي المستمر الرتيب

لم يعد يستجيبْ
لنداء ارتياعي وفيم صراخ النداءْ ؟
هل هناك ملاذ قريب
أو بعيدٌ . . سأمضي وان كان خلف السماء
أو وراء حدود الرجاء
ثم ذات مساء
أسمع الصوتَ :
« سيري فهذا طريق عميقْ
يتخطى حدود المكانْ
لن تعي فيه صوتاً لغمغمة الأكوان
إنه « لا برِنْثٌ » سحيقْ
ربما شيَّدته يد في قديم الزمان
لأمير غريب الطباعْ
ثم مات الأمير . . وابقى الطريقْ

لأكفّ الضياع »
أسمع الصوت ملء البقاع
فأسير لعلي أفيقْ
من دياجير كابوسيَ الابديّ الصفيق
ربما سيضلّ عدوّي الطريق
ما أحبَّ المسيرَ وليس ورائي خطىً مائته
تمطى بأصدائها الباهته
في محاني طريقي الطويل
إنه لن يجيءْ
لن يجيء وان عبر المستحيل
أبداً لن يجيءْ
لن يراه فؤادي البريء
من جديد يثير الرياحْ
لتسدّ عليّ السبيل

في هدوء الصباح
أبداً لن يجيء
لن يجيءَ !..
وأسمع قهقهة حاقده
إنه جاء ! ! يا لضياع رجائي الكسيرْ
في دجى اللابِرِنْث الضرير
وأحسُّ اليد المارده
تضغط البرد والرعب فوق هدوئي الغرير
بأصابعها الجامده
إنه جاء .. فيم المسير ؟
سأودع حلمي القصير
وأعود بجثته البارده .

*

وتمرّ تمرّ الحياة

وعدوّي الخفي العنيد
خلف كل طريق جديد
في ليالي الأسى الحالكات
خلف كل سحَرْ
وأراه يطلّ عليّ مع المنتظر
مع أمسي البعيد
مع ضوء القمر
في الفضاء المديد
أين أين المفر
من عدوّي العنيد
وهو مثل القدر
سرمديّ ، خفي ، أبيد
سرمديّ ، أبيد .

١٩٤٧

خرافات

«هدية الى صديقتي د. أ. تحية
لذكرى مساء فلسفنا فيه كل شيء
حتى الكراسي والمناضر والستائر»

قالوا الحياة

هي لون عينيْ ميّتِ
هي وقع خطو القاتل المتلفت
أيامها المتجعداتْ
كالمعطف المسموم ينضح بالممات
أحلامها بسمات سعلاة مخدّرة العيون
ووراء بسمتها المنون

قالوا الأمل

هو حسرة الظمآن حين يرى الكؤوسْ
في صورة فوق الجدار
هو ذلك اللون العبوس
في وجه عصفور تحطم عشّه فبكى وطار
وأقام ينتظر الصباح لعلّ معجزةً تعيد
أنقاض مأواه المخرّب من جديد .

قالوا النعيم

وبحثتُ عنه في العيون الغائراتْ
في قصة البؤس التي كتبت على بعض الوجوه
في الدهر تأكله سنوه
في الزهر يرصد عطره شبحُ الذبول
في نجمة حسناء يرصدها الأفول
قالوا النعيم ولم أجدْهُ فهل طوى غده ومات ؟

قالوا السكون

أسطورة حمقاء جاء بها جمادْ
يصغي بأذنيه ويترك روحه تحت الرماد
لم يسمع الصرخات يرسلها السياج ،
وقصائص الورق الممزّق في الخرائب ، والغبار ،
ومقاعد الغرف القديمة ، والزجاج ،
غطاه نسج العنكبوت ، ومعطف فوق الجدار .

قالوا الشباب

وسألت عنه فحدثوني عن سنين
تأتي فينقشع الضباب
وتحدثوا عن جنة خلف السراب
وتحدثوا عن واحة للمتعبين
وبلغتها فوجدت أحلام الغد
مصلوبة عند الرتاج الموصد

قالوا الخلود

ووجدته ظلاً تمطّى في برودْ
فوق المدافن حيث تنكمش الحياه
ووجدته لفظاً على بعض الشفاه
غنّته وهي تنوح ماضيها وتنزله اللحود
غنته وهي تموت . . . يا للازدراءْ !
قالوا الخلود ، ولم أجد الا الفناءْ .

قالوا القلوب

ووجدت أبواباً تؤدي في اختناق
لمقابرٍ دُفن الشعور بها ومات غد الخيال
جدرانها اللزجات تبتلع الجمال
وتمجّ قبحاً لا يطاق
وهربت شاحبة أتلك إذن قلوبْ ؟
يا خيبة الأحلام . اني لن أؤوب

قالوا العيون

وو جدتُ أجفاناً وليس لها بصرْ

وعرفت أهداباً شددن الى حجر

وخبرت أقباء ملفعة بأستار الظنون

عمياء عن غير الشرور وان تكن تدعى عيون

وعرفت آلافاً وأعينهم صفائح من زجاج

زرقاء في لون السماء ، وخلف زرقتها دَياجْ

قالوا وقالوا

ألفاظهم لا كت تردُّدَها الرياح

في عالم أصواته الجوفاء يرصدها الفناء

المتعبون بلا ارتياح

الضائعون بلا انتهاء

قالوا وقلت وليس يبقى ما يقالْ

يا للخرافة ! يا لسخرية الخيالْ !

١٩٤٨

جمود

في سكون المساءْ في ظلام الوجودْ
حين نام الضيـاء واعتراني جمود

خلتُ نفسي أسيرْ في مكانٍ بعيـدْ
فوق قلبي أثير تحت رجلي قيود

في كياني فتور في دمي نَوْمْ
لقبْوه الشعور وهو لا شيءْ

في إسار الألم روحيَ المبهمْ
يا معاني العـدمْ آه لو أفهـم

في ضباب الوجودْ		أنـــــا كالسرّ
وغــداً سأعود		دون أن أدري

جسدي في الألمْ		خاطري في القيود
بين همس العدم		وصراخ الوجود

وسكوني حياة		وظلامي بريقْ
ألنجاة النجاة		من شعوري العميق

أأنـــــا حُلْمُ		وشعور طهورْ
أم أنــا جسمُ		مغرق في الشرور

بــل أنا آفاق		من شعور عنيفْ
وأنــــا أعماق		من خضمٍّ مخيف

المقـــايـــس ليـــس تعنيني
ألأحـــــأسيس هي قـــانوني

أنـــا لا أهوى ما يحبّ الناسْ
فاذا دوّى في دي إحساس

سرتُ لا ألوي سرت خلف الصوت
فغـداً يطوي فجر عمري الموت

في دي إعصارْ عاصف بالجمودْ
وشظايا نـار تتحدى الركود

كل قلبي شكْ في معاني الخيرْ
فكرةٌ تُضحِك ! أنا أهوى الشر !

ان يكُ الجسمُ من تراب حقيرْ
فأنــا إثمٌ ... أنا لستُ أثير !

ان يك العقلُ يمقت الانفجار
فأنــــا حلٌ منه .. يا للعار !

ان يك الايمان هو هـذا الجمودْ
فأنا نكران أنا كلي جحود

١٩٤٧

مرثية يوم تافه

لاحت الظلمة في الافق السحيق
وانتهى اليوم الغريبُ
ومضت أصداؤه نحو كهوف الذكرياتِ
وغداً تمضي كما كانت حياتي
شفة ظمأى وكوبُ
عكست اعماقه لون الرحيقِ
واذا ما لمسته شفتايا
لم تجد من لذة الذكرى بقايا
لم تجد حتى بقايا !!

انتهى اليوم الغريبُ
انتهى وانتحبت حتى الذنوبُ

وبكت حتى حماقاتي التي سميتها
ذكرياتي
انتهى لم يبق في كفي منه
غير ذكرى نغم يصرخ في أعماق ذاتي
راثياً كفي التي أفرغتها
من حياتي ، وادّكاراتي ، ويوم من شبابي
ضاع في وادي السراب
في الضباب .

كان يوماً من حياتي!
ضائعاً ألقيته دون اضطراب
فوق اشلاء شبابي
عند تل الذكريات
فوق آلاف من الساعات تاهت في الضباب

في متاهات الليالي الغابرات .

كان يوماً تافهاً . كان غريبا
أن تدق الساعة الكسلى وتحصي لحظاتي
انه لم يكُ يوماً من حياتي
انه قد كان تحقيقاً رهيبا
لبقايا لعنة الذكرى التي مزقتها
هي والكأس التي حطمتها
عند قبر الامل الميت ، خلف السنوات ،
خلف ذاتي !

كان يوماً تافهاً ... حتى المساءِ
مرت الساعات في شبه بكاء
كلها حتى المساء

عندما ايقظ سمعي صوته

صوته الحلو الذي ضيعته

عندما أحدقت الظلمة بالافق الرهيب

وامحت حتى بقايا املي ، حتى ذنوبي

وامحى صوت حبيبي

حملت أصداءه كف الغروب

لمكان غاب عن أعين قلبي

غاب لم تبق سوى الذكرى وحبي

وصدى يوم غريب

كشحوبي

عبثاً أضرع أن يرجع لي صوت حبيبي .

١٩٤٨

ألغاز

دعني في صمتي في إحساسي المكبوتِ
لا تسأل عن ألغاز غموضي وسكوتي

دعني في لُغزي لا تبحث عن أغواري
إقنع من فهم أحاسيسي بالأسرار

لا تسأل إني أحياناً لغز مبهمْ
أبقى في الغيب مع الأسرار ولا أُفهم

روحي لا تعشق أن تحيا مثل الناس
أنا أحياناً أنسى بشرية إحساسي

حتى حبّكَ .. حتى آفاقكَ تؤذيني
فانا روحٌ أسبحُ كالطيف المفتون

قلـــبي المجهول يحسُّ شعوراً علويا
لا حســاً يشبهه لا وعيــاً بشريا

أذذاك أحسك شيئاً بشـــرياً قلقا
فة أحلامي ترفضـه مهـــما ائتلقا

إذذاك يحسك روحي بعضَ الأموات
ما سمّي «أنتَ» هوى لم تبق سوى ذاتي

في وجهك أنظر لكني لا أبصرهُ
في روحي أبحث عن شيءٍ اتذكره

أتذكر ! ! لا أدري ماذا ؟ ماذا كانا ؟
شيءٌ لا شكل يحدده ... لا ألوانا !

ألمبهم في روحي يبقى في إبهامه
دعه لا تسألني عنه . عن أنغامه

دعني في ألغازي العليا في أسراري
في صمتي ، في روحي ، في مهمه أفكاري

في نفسي جزء أبديٌّ لا تفهمهُ
في قلبي حلم عُلويٌّ لا تعلمه

دعه . ماذا يعنيك لتسألَ في إصرارْ ؟
ألحب يموتُ إذا لم تحجبه أسرارْ

إني كالليلِ : سكونٌ . عمق . آفاقُ !
إني كالنجم : غموضٌ . بعدٌ . إبراق !

فافهمني إن فُهم الليلُ . إفهم حتّى
والمسني إن لُمس النجمُ . إلمس نفسي

١٩٤٧

جامعة الظلال

أخيراً لمستُ الحياه
وأدركت ما هي أي فراغ ثقيلْ
أخيراً تبينت سرّ الفقاقيع واخيبتاه!
وأدركتُ أني أضعت زماناً طويل
ألمّ الظلال وأخبط في عتمة المستحيلْ
ألمّ الظلال ولا شيءَ غير الظلالْ
ومرّت عليّ الليالْ
وها أنا أدرك أني لمست الحياه
وإن كنت أصرخ واخيبتاه!

*

ومرّ عليّ زمانٌ بطيء العبورْ
دقائقه تتمطى ملالاً كأن العصورْ

هنالك تغفو وتنسى مواكبها أن تدورْ
زمانٌ شديد السواد ، ولون النجومْ
يذكرني بعيون الذئابْ .
وضوء صغير يلوح وراء الغيوم
عرفت به في النهاية لون السرابْ
ووهم الحياه
فوا خيبتاه

أهذا إذن هو ما لقبوه الحياه ؟
خطوط نظلّ نخططها فوق وجه المياه
وأصداء أغنية فظة لا تمس الشفاه
وهذا إذن هو سرّ الوجود ؟
ليالٍ ممزقة لا تعود
وآثار أقدامنا في طريق الزمان الأصم

تمرّ عليها يد العاصفه

فتمسحها دونما عاطفه

وتسلمها للعدم

ونحن ضحايا هنا

تجوع وتعطش أرواحنا الحائره

ونحسب أن المنى

ستملأ يوماً مشاعرنا العاصره

ونجهل أنا ندورْ

مع الوهم في حلقاتْ

تجزّىء ايامنا الآفلات

الى ذكريات

وننتظر الغد خلف العصور

ونجهل أن القبور

تمدّ الينا بأذرعها البارده

ونجهل أن الستائر تخفي يداً بارده

*

عرفت الحياة ، وضقت بجمع الظلال
وأضجرني أن نجوب التلال
نحدّق في حسرةٍ خلف ركب الليال
تسير بنا القافله
نجوس الشوارع في وحدةٍ قاتله
إلامَ يخادعنا المبهمُ ؟
وكيف النهاية ؟ لا أحد يعلم !

*

سنبقى نسير
وأبقى أنا في ذهولي المرير
ألمّ الظلال كما كنت دون اهتمام
عيونٌ ولا لونَ ، لا شيءَ الا الظلامْ

شفاه تريد ولا شيء يقرب مما تريدْ
وأيدٍ تريد احتضان الفضاء المديد
وقلب يريد النجومْ
فيصفعه في الدياجير صوت القدوم
يهيل التراب على آخر الميّتينْ
وأقصوصة من يراع السنين
تضجّ بسمعي فأصرخ : آه !
أخيراً عرفتُ الحياه !

فوا خيبتاه !!

١٩٤٨

أجراس سوداء

لنمت ! فالحياة جفّت ، وهذي الأكؤس الفارغات تسخر منا
وغيوم الذهول في أعين الأيام عادت أجلى وأعمق لونا
وسكون الحياة في جسد الأحلام لم يبقِ قطّ للعيش معنى
وفراغ الآهات أثبت أنّا قد فرغنا من دورنا وانتهينا

وعميقاً في الليل نسمع أقدام الليالي في رهبةٍ ووجومِ
ودويّ الأجراس ينذرنا أنّا انتهينا من دورنا المحموم
أن مافي الكؤوس يوشك أن ينضب الا من حفنة من هموم
أن مافي العيون من عطش الأحلام أمسى رماد حبٍّ قديم

وبعيداً في الجوّ تنذرنا الأصوات أن الحياة عادت جنونا
أنّ لون الخيال قد حال ، وارتدّ شحوباً وواقعاً محزونا
أنّ « قبلَ » الرجاء أصبح لا « بعدَ » له فهو فكرة لن تكونا
أن شيئاً في عمق أنفسنا يجذبنا المماتِ . شيئاً مكينا !

ولماذا نبقى هنا ؟ أولَم نشبع ونضجرْ ونَرْوَ دون انتهاء ؟
أولم ندرك النعيم وخمر النصر والحبّ نابضاً بالرجاء ؟
أولم نعرف الأسى العاصر المجنون والنوم بعد طول البكاء ؟
أولم نُشبع الوجود ومن فيه احتقاراً ونمض باستهزاء ؟

ولماذا نبقى هنا ؟ أسمع الموت ينادي بنا ، فلمْ لا نجيبُ ؟
لنمتْ فالرياح تجرح وجهينا ولون الدجى عميق رهيب
وهنا نحن متعبان ، غريبان ، تعالى بنا الشباب الكئيب
وهنا نحن ميّتان وإن كان لعرق الحياة فينا وجيب

« ألغريبان ... » هكذا يهمس الليل ، وأجراسه تلف الوجودا
ايها الليل ، ان يعيش الغريبان ولن يلمسا مساءً جديدا
خذهما ، أرخِ جنحك الأسود الهادىء حوليهما وحلّق بعيدا
خذهما ، عزّ أن يقولوا «غريبان» و «كانت أقصوصة لن تعودا»

١٩٤٨

نهاية السلم

مرّت أيام منطفئاتْ
لم نلتقِ لم يجمعنا حتى طيف سرابْ
وانا وحدي ، أقتات بوقع خطى الظلمات
خلف زجاج النافذة القفلة ، خلف الباب
وانا وحدى . . .
مرت أيامْ
باردةً تزحف ساحبةً ضجري المرتاب
تزحف في كسلٍ خلف البابْ
وأنا أصغي وأعدّ دقائقها القلقاتْ
هل مرّ بنا زمنٌ ؟ أم خضنا اللا زمنا ؟
وغرقنا في مدّ الأوهامْ
مرّت أيام

أيام تثقلها أشواقي . أين أنا ؟
ما زلت أحدّق في السلّمْ
والسلّم يبدأ لكن أين نهايتهُ ؟
يبدأ في قلبي حيث التيه وظلمته
يبدأ . أين الباب المبهمْ ؟
باب السلم ؟

*

مرّت أيام
لم نلتق ، انت هناك وراء مدى الأحلام
في أفق حفّ به المجهولْ
وأنا أمشي ، وأرى ، وأنام
أستنفذ أيامي وأجرّ غدي المسؤولْ
فيفرّ الى الماضي المفقودْ
أيامي تأكلها الآهات متى ستعود ؟

مرّت أيام لم تتذكر أن هناكْ
في زاوية من قلبك حباً مهجورا
عضّت في قدميه الأشواكْ
حباً يتضرع مذعورا
هبه النورا

*

بُعد . بعضَ لقاء
عندنا أجنحة نجتاز الليل بها
فهناك فضاء
خلف الغابات الملتفات هناك بحور
لا حدّ لها ترغي وتمور
أمواج من زَبد الأحلام تقلّبها
أيدٍ من نور

*

عدْ ، أم سيموتْ ،

صوتي في سمعك خلف المنعرج الممقوت .

وأظل أنا شاردةً في قلب النسيانْ

لا شيء سوى الصمت الممدودْ

فوق الأحزان

لا شيء سوى رجع نعسان

يهمس في سمعي ليس يعود

لا . ليس يعود .

١٩٤٨

أنا

الليل يسأل من أنا

أنا سرّه القلق العميق الأسودُ

أنا صمته المتمرّدُ

قنّعتُ كنهي بالسكون

ولففت قلبي بالظنون

وبقيت ساهمةً هنا

أرنو وتسألني القرون

أنا من أكون ؟

والريح تسأل من أنا

أنا روحها الحيران أنكرني الزمانْ

أنا مثلها في لا مكان

نبقى نسير ولا انتهاءْ

نبقى نمرّ ولا بقاء

فاذا بلغنا المنحنى

خلناه خاتمة الشقاءْ

فاذا فضاءْ !

والدهر يسأل من أنا

أنا مثلهُ جبارة أطوي عصورْ

وأعود أمنحها النشور

أنا أخلق الماضي البعيدْ

من فتنة الأمل الرغيد

وأعود أدفنه أنا

لأصوغ لي أمساً جديدْ

غَدهُ جليد

والذات تسأل من أنا

أنا مثلها حيرى أحدّق في ظلامْ

لا شيء يمنحني السلام

أبقى أسائل والجوابْ

سيظل يحجبه سراب

وأظلّ أحسبه دنا

فاذا وصلت إليه ذابْ

وخبا وغابْ

١٩٤٨

غرباء

أطفئ الشمعة واتركنا غريبين هنـــا
نحن جزءان من الليل فما معنى السنا ؟
يسقط الضوء على وهمين في جفن المساءْ
يسقط الضوء على بعض شظايا من رجاء
سُمّيت نحن وأدعوهـــا أنا :
مللاً . نحن هنا مثـــل الضياءْ
غُربَاءْ !

ألقاء الباهت البارد كاليوم المطيرِ
كان قتلاً لأناشيدي وقبراً لشعوري
دقت الساعة في الظلمة تسعاً ثم عشرا
وأنا من ألمي أصغي وأحصي . كنت حيرى
أسأل الساعة ما جدوى حبوري
إن نكن نقضي الأماسي أنت أدرى
غرباء !
مرّت الساعات كالماضي يغشّيها الذبولُ
كالغد المجهول لا أدري أفجر أم أصيــلُ
مرت الساعات والصمت كأجواء الشتاءِ
خلته يخنق أنفاسي ويطغى في دمــائي
خلتــه ينبس في نفسي يقولُ
أنتما تحت اعــــاصير المساءِ
غرباء !

أطفىء الشمعة فالروحان في ليـل كثيفٍ
يسقط النور على وجهين في لون الخريف
أوَلا تبصر ؟ عينـــانا ذبولٌ وبرودُ
أوَلا تسمع ؟ قلبانا انطفـــاء وخمود
صمتنا أصـــداء إنذارٍ مخيفٍ
ساخرٌ من أنـــا سوف نعودُ
غرباءْ !
نحن من جاء بنا اليومَ ؟ ومن أين بدأنا ؟
لم يكن يعرفنا الأمس رفيقين . . . فدَعنا
نطفر الذكرى كأن لم تك يوماً من صبانا
بعضُ حبٍّ نزقٍ طاف بنا ثم سلانا
آه لو نحن رجعنـــا حيث كنا
قبل أن نفنى ومازلنـــا كلانا
غرباءْ !
١٩٤٨

أغنية الهاوية

مججتُ الزوايا التي تلتوي
وراء النفوسْ
وراء بريق العيونْ
وأبغضت حتى السكون
وتلك المعاني التي تنطوي
عليها الكؤوس
معاني الصدى والجنون
معاني الخطايا التي تبرقُ
بريق النجومْ
وفي لمسها اللهب المحرق
ولون الهموم
كرهتُ الجفون التي تأسرُ

وخلف سماء ابتساماتها

لهيب الحقودْ

كرهت الاكف التي تعصر

وخلف حرارة رعْشاتها

جمود كذلّ الحياه

على جثة تحت بعض اللحودْ

تعيش بها دودة في برود

كرهت ارتعاش الشفاه

برجع الصلاه

ففي كل لفظ خطيئه

تجيش بها رغبات دنيئه

وعفت طموحي وبحثي الطويلْ

عن الخير ، والحبّ ، والمثل العاليه

وحقرت سعيي الى عالم مستحيل

خلف انخداعيَ تنتظر الهاويه
وعفت جنوني القديم وعفت الجديدَ
وأودعته في مكان بعيد
دفنت به رغبات البشرْ
وسمّيته جنة الواهمين
ستمضي السنين
لماذا أحسّ الأسى والضجرْ
وكفّ المطر
تلفّ على عنقي المختنقْ
حبال الفكرْ
وأين أسير وقلبي النزقْ
هنالك ما زال ، لا يبردُ
ولا يحترق
كقلب أبي الهول . أين الغد

أحسّ حياتي تذوبْ

ففي لحظة واحده

ولا تسحبي يدكِ البارده

فأغنية الهاويه

تهب بأقدامي الشارده

وتلوي الدروبْ

ففي لحظة يا حبال الحياه

ولا تتركيني هنا

معلقةً بالفراغ الرهيبْ

فأمسي القريب

تلاشى على آخر المنحنى

وظلُّ غدي

تلمّ أواه لو أهتدي

ففي لحظة واحده

ولا تسحبي يدك البارده

فأغنية الهاويه

تردّدها الأنفس الجانيه

تكرّرها في جنونْ

على سمعيَ المجهدِ

تكررها لم يعد لي سكون

أكاد أسير الى الهاويهَ

مع السائرين

وأدفن آخر أحلاميه

وأنسى غدي

١٩٤٨

فى جبال الشمال

عد بنا ياقطارْ
فالظلام رهيب هنا والسكون ثقيلْ
عد بنا فالمدى شاسع والطريق طويل
والليالى قصار
عد بنا فالرياح تنوح وراء الظلالْ
وعواء الذئاب وراء الجبال
كصراخ الأسى في قلوب البشر
عد بنا فعلى المنحدر
شبح مكفهرٌ حزينْ
تركتْ قدماه على كل فجرٍ أثر
كل فجر تقضى هنا بالأسى والحنين
شبح الغربة القاتله

في جبال الشمال الحزين

شبح الوحدة القاتله

في الشمال الحزين

عد بنا قد سئمنا الطوافْ

في سفوح الجبال وعدنا نخاف

أن تطول ليالي الغيابْ

ويغطي عواء الذئابْ

صوتنا ويعزّ علينا الاياب

عد بنا للجنوبْ

فهناك وراء الجبال قلوب

عد بنا للذين تركناهم في الضباب

كل كفٍ تلوّح في لهفة واكتآب

كل كفّ فؤاد

عد بنا يا قطار ، سئمنا الطواف وطال البعاد

وهنالك همسٌ عميقٌ
لانغ خلف كل طريق
في شعاب الجبال الضخامْ
ووراء الغمام
في ارتعاش الصنوبر ، في القرية الشاحبه ،
في عواء ابن آوى ، وفي الانجم الغاربه ،
في المراعي هنالك صوت شَرُودْ
هامس ان نعود
فهناك بيوت أُخرْ
ومراعٍ أخر
وقلوب أخر
وهنالك عيون أبت أن تنامْ
وأكفٌ تضمّ الدجى في اضطرام
وشفاه تردّد أسماءنا في الظلام

وقلوب تصيخ لأقدامنا في وجومْ
وتنادي النجوم
في أسى ً وسكونْ :
« ومتى يانجوم سيذكرنا الهاربون ؟ »
« ومتى يرجعون ؟ »

لحظةً ، سنعودْ
لن يرانا الدجى هاهنا ، سنعود
سنعود ، سنطوي الجبالْ
وركام التلال
لن ترانا ليالي الشمال
ها هنا من جديدْ
لن يحسّ الفضاء المديد
نار آهاتنا في المساء الرهيبْ

في سكون المساء الرهيب

*

عد بنا يا قطار الشمالْ
فهناك وراء الجبال
ألوجوه الرفاق التي حجبتها الليال
عد بنا ، عد إلى الأذرع الحانيه
في ظلال النخيلْ
حيث أيامنا الماضيه
في انتظار طويلْ
وقفت في انتظارْ
تتحرى رجوع القطار
لتسير مع السائرين
حيث أيامنا تسأل العابرين
واحداً ، واحداً ، في حنين

« ومتى عودة الهاربين ؟ »

*

لنعد فهناك نشيد قديمْ
حولنا هامس بالرجوعْ
ما أحبَّ الرجوع
بعد هذا الطواف الأليمْ
في جديب الشعابْ
حيث تعوي الذئاب
لنعدْ، فالدجى بارد كالجليدْ
وهنالك خلف الفضاء البعيد
أذرع دافئه
لنعد فالجبال تكشّر عن ليلها المظلم
وهنالك خلف الدجى المبهم
صوت أحبابنا، في الظلام السحيقْ

نابضاً بالحنين العميق

صوتهم مثقلاً بالعتابْ

صوتهم ردّدته الشعاب

صوتهم في سكون المكانْ

دائر كالزمان

لنعد قبل أن يقضيَ الأفعوان

بفراق طويل، طويلْ

عن ظلال النخيل

عن أعزّائنا خلف صمت القفارْ

عد بنا يا قطار

فالليالي قصار

وهنالك أحبابنا في أسىً وانتظار

سرسنك ١٩٤٨

الى عمتي الراحلة

أنـــا لم أزل في الفجر رانيةً	للأفق في صمتٍ واعياءِ
تتدافع الذكرى على شفتي	بعضَ ارتماشاتٍ وأصداء
الجرح نديانٌ تعيش بـــه	أصـــداء ماضٍ ميّت نـاء
أيامه عـــادت صدى حُلُمٍ	لم تبق منـــه غير أشلاء
غير ابتسامات ممزّقــــة	أودت بهنَّ مرارة الداء

تتدافع الذكرى وتملأني	أشباحها قلقاً وأشجـــانا
ألأمس ما زالت كآبتــــه	حرّى تذكرني بما كانا :
بالليل كيف سهرته ألمـاً	بالفجر كيف أطلّ ظمآنا
بدموعيَ العطشى وحرقتها	بتدفق الاحساس أحزانا
باليأس كيف طغت مرارته	وتمرّدت حُرَقاً ونيرانـــا

الأمس هل في الأمس من حُلُم | هل فيه ما ينجي من الحُرَقِ ؟
هل فيه بعض صدىً يناغمني | ذكرى ؟ رجاء غير محترق !؟
لفظ عزٌّ ؟ وبسمةٌ ؟ ويدٌ | مرّت برقتها على قلقي ؟
أواه . بعضَ خطىً ألوذ بها | من حزنيَ القاسي ومن أرقي
بعضَ ابتسامتك التي غربتْ | في الصمت واحترقت على الأفق

ألدمع أذرفـــه ويذرفني | قلباً يجنّ أسىً ويُحتضرْ
قطراتـــه نـــار تمزّقني | ما زال منهـــا في دمي أثر
عيناي تحترقان من ألمٍ | تدمى وتقطر فيهما الصور
جرحان لاجفنان أين غدي ؟ | أين الطبيعة والهوى النضر ؟
ما للحيـاة هوت أشعتهـا | ليلاً وعكّر جوّها القدر ؟

أين التفتُّ تصدّني صورٌ   وحشيّة ، وشتيت آلام
ذكرى من الماضي تحطمني   وتظل تصهر جفنيَ الدامي
أواه كيف سقطتِ ميّتةً   وأنا أعيش . وتلك أوهامي !
وأنا أعيش رؤىً ممزّقةً   وأحوك أهوائي وأحلامي
تتلفت الذكرى اليك وبي   ظمأٌ يمتُّ جوَّ أيامي

وأريد أن أنسى فتخنقني   رَعشات حزنٍ ساهد مرِّ
أبقيت جرحاً حافراً قلقاً   في قلب أحلامي وفي شِعري
كفّ الحنان نسيتُ ملمسها   وفقدت معبرها على شَعري
لم يبقَ منـــها غير أغنيةٍ   جفت مرارتها على ثغري
وسهرت أنشدها وأنشدها   في ليـــلةٍ مأسورة الفجر

أواه من حزني ومن ظمأي ... هل عدتِ طيفاً مطفأ المقلِ
القبر ضمّك في برودته ... بعد ارتعاشة قلبي الخضل
لا طير يوقظ فيك عرق هوىً ... لا شيء يبعث خامد الأمل
ألظلّ مرّ وأنت ساهية ... عن رقصه وشعاعه الثمل
والنجم لاح وأنت هامدة ... لا تعبأين بضوئه الخجل

وتمر أصداء الحياة ضحىً ... بوسادك المحزون وا أسفا
صوت المؤذن كم سهرتِ له ... ما باله في مسمعيك غفا ؟
ما بال رعشته تمرّ على ... قلب تناسى كيف أمس هفا
ما بالها لاذت بغربتها ... ومضت تباكي حولك (النجفا)
تبكي وترسم في انتفاضتها ... صوتاً يبيت الليل مرتجفا

أوحيـــــدة في القبر هامدة		وأنــا أمسّ سريرك الخاوي
خصلات شعرك فوقه حرق		في عمق يأسي الصارخ الداوي
ومكان رأسك في الوسادة في		قلبي بقايا كوكب هــاو
وقميصك البــاكي أما بقيت		فيه حرارة جسمك الذاوي
كيف انطويت وأنت خالدة		في أدمعي ؟ شلّت يد الطاوي

أصغي وهل تصغين؟ هل بلغت		مثواك أصــداء ارتعاشاتي
كيف انتفضتُ وأنت هامدة		في غلَيَيْ ألمي وآهــاتي
تتعثر النغـمات في شفتي		بصراخ أحزاني وأنّاتي
مزقت أيامي التي سلفت		ودفنت فيك بشاشة الآتي
وأضعت أفراحي ومن عبثٍ		شبـه ابتساماتي وضحكاتي

١٩٤٨

الكوليرا

سكن الليلُ

أصغِ إلى وقع صدى الأنّاتْ

في عمق الظلمة ، تحت الصمتِ ، على الأموات

صرخاتٌ تعلو ، تضطربُ

حزنٌ يتدفق ، يلتهبُ

يتعثر فيه صدى الآهات

في كل فؤادٍ غليانُ

في الكوخ الساكن أحزان

في كل مكانٍ روح تصرخ في الظلمات

في كل مكان يبكي صوتْ

هذا ما قد مزّقه الموتْ

ألموتُ ألموتُ ألموتْ

يا حزن النيل الصارخ مما فعل الموتْ !

طلع الفجرُ
أصغ الى وقع خطى الماشين
في صمت الفجر، أصغْ، انظر ركب الباكين
عشرة أموات، عشرونا
لا تحص أصغْ للباكينا
إسمعْ صوت الطفل المسكين
موتى، موتى، ضاع العددُ
موتى، موتى، لم يبق غَدُ
في كل مكان جسَدٌ يندُبه محزون
لا لحظة إخلاد لا صمتْ
هذا ما فعلت كف الموتْ
ألموتُ ألموتُ ألموتْ
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموتْ

ألكوليرا
في كهف الرعب مع الأشلاء
في صمت الأبد القاسي حيث الموتُ دواء
إستيقظ داء الكوليرا
حقداً يتدفق موتورا
هبط الوادي المرح الوضاء
يصرخ مضطرباً مجنونا
لا يسمع صوت الباكينا
في كل مكان خلّف مخلبه أصداء
في كوخ الفلاحة في البيتْ
لا شيء سوى صرخات الموت
ألموت الموت الموت
في شخص الكوليرا القاسي ينتقم الموت

ألصمتُ مرير

لا شيء سوى رجع التكبير

حتى حفّار القبر ثوى لم يبق نصير

ألجامع مات مؤذنهُ

ألميّت من سيؤبنه

لم يبق سوى نوح وزفير

الطفل بلا أمّ وأبِ

يبكي من قلب ملتهب

وغداً لاشكّ سيلقفه الداء الشرّير

يا شبح الهيضة ما أبقيت

لا شيء سوى أحزان الموت

الموت ، الموت ، الموت !

يا مصر شعوري مزّقه ما فعل الموت !

١٩٤٧

لنكن أصدقاء

لنكن أصدقاءْ
في متاهات هذا الوجود الكئيبْ
حيث يمشي الدمار ويحيا الفناء
في زوايا الليالي البطاء
حيث صوت الضحايا الرهيب
هازئاً بالرجاء
لنكن أصدقاءْ
فعيون القضاء
جامداتُ الحدقْ
ترمق البشر المتعبينْ
في دروب الأسى والأنين
تحت سوط الزمان النزق

لكن أصدقه:
ألأكفّ التي عرفت كيف تجبي الدماء
وتحزّ رقاب الخليين والابرياء
ستحسّ اختلاج الشعور
كلما لامست إصبعاً أو يدا
والعيون التي طالما حدقت في غرورّ
ترمق الموكب الاسود!
موكب الرازحين العبيد
هذه الأعين الفارغات
ستحسّ الحياة
ويسود الجمود البليد
خلفها الف عرق جديد
والقلوب التي سمعت في انتعاش
صرخات الجياع العطاش

ستذوب بكاءً على الجائعين
ستذوب لتسقي صدى الظامئين
كأسة ولتكن ملئت بالأنين

لكن أصدقاء
نحن والظالمون
نحن والعزّل المتعبون
والذين يقال لهم « مجرمون »
نحن والاشقياء
نحن والثملون بخمر الرخاء
والذين ينامون في القفر تحت السماء
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخون بلا جدوى
نحن والأسرى

نحن والأمم الآخرى
في بحار الثلوج
في بلاد الزنوج
في الصحارى وفي كل أرض تضم البشر
كل أرض أصاخت لآلامنا
كل أرض تلقت توابيت أحلامنا
ووعت صرخات الضجر
من ضحايا القدر

لكن أصدقاء
ان صوتاً وراء الدماء
في عروق الذين تساقوا كؤوس العداء
في عروق الذين يظلون كالثعابين
يطعنون الاخاء

يطعنون أعزّاءهم بالسمين
في عروق المحبّين . . . والهاربين
من أحبّائهم ، من نداء الحنين .
في جميع العروق
أن صوتاً وراء جميع العروق
هامساً في قرارة كل فؤاد خفوق
يجمع الأخوة النافرين
ويشد قلوب الشقيّين والضاحكين
ذلك الصوت ، صوت الاخاء
فلنكن أصدقاء

في بعيد الديار
ووراء البحار
في الصحاري، وفي القطب، في المدُن الآمنه

في القرى الساكنه
أصدقاء بشر
أصدقاء ينادون أين المفر ؟
ويصيحون في نبرة ذابله
ويموتون في وحدة قاتله
أصدقاء جياع ، حفاة، عراه
لفظتهم شفاه الحياه
إنهم أشقياء
فلنكن أصدقاء

من بعيد
صوت عصف الرياح الشديد
ناقلاً ألف صوت مديد
من صراخ الضحايا وراء الحدود

في بقاع الوجود
الضحايا ، ضحايا العراك
وضحايا القيود
وصدى « هيَاواثا » هناك
مثقلاً بأنين الجياع
بأسى المصطلين لظى الحمّى
بالذين يموتون دون وداع
دون أن يعرفوا أمّا
دونما آباء
دونما أصدقاء

١٩٤٨

جنازة المرح

سأغلق نافذتي فالضياء يعكر ظلمتي الباردة
سأسدل هذا الستار السميك على صفحة القصة البائدة
وأطرد صوت الرياح البليد وإشعاعة الأنجم الحاقدة
وأسند رأسي الى الذكريات وأغمس عيني في دمعتين
وأرسل حبي يلف القتيل ويدفىء جبهته الهامدة
لعلي أرد اليه الحياة وأمسح من زرقة الشفتين

سأغلق نافذتي فالقتيل يحب الظلام العميق العميق
وأكره أن يتمطى الضياء على جسمه الشاعري الرقيق
على جبهة زرعتها النجوم ولونها ضوؤها بالبريق
وكانت تشع الحياة فمادت تعج الأسى والردى والعذاب
تخط عليها ذراع السماوات أساطير عهد سحيق سحيق
أمر عليها بكفي فأصرخ رعباً وأسقط فوق التراب

سأغلق نافــــذتي فالظهير ةُ لا ينتهي حقدها الراعب
تصب سكينتها في برود ويسخر بي وجهها الغاضب
يطاردني صمتها السرمديّ ويكلبني لونها الراسبُ
وأين المفرّ ؟ تكاد الستائـــر تدخلهـا غرفتي المظلمه
وأين المفرّ ؟ وهذا القتيل يروّعني وجهـه الشاحبُ
أمامي القتيل وخلفي الظهير ة يا للمطاردة المؤلمـــه

سأصبر حتى يجيءَ الدجى ويغرب خلف الوجود الضياءْ
فأحمل هــذا القتيل البريء الى هوّة من كهوف المساء
أسير بأشلائه موكباً بطيء الخطى كليالي الشتاء
وتتبعني شهقـــات التذكّر مهمومة في أسى وشرودْ
وفي آخر الموكب المترنـــح وجهٌ يشيّعه في ازدراء
وفي آخر الموكب المترنـــح وجـــهٌ يشيّعه في برود

عرفتِ الجبين عرفت الشفاه   وهذي العيون اللحاظ الأديمْ
عرفت بها وجه حزني الدفين   وقد عاد يحمل جرحي القديم
وفي يــده مُـدْية لم يزل   على خدّها دم أمسي الأليم
عرفتُ العدوّ اللجوج هناك   يسير على أثر الموكب
يحدّق مستهزئاً بالقتيـــل   ويضحك ضحكة فظ أثيمْ
نعم هو . . . أعرفه جيداً !   فكم مرةٍ قبلُ قد مرّ بي

وأبصرت في أثري ألف طيفٍ   حزين تلفّع بالعبراتْ
عرفت بهــا البسمات التي   لقيت بهــا لطمات الحيــاة
عرفت بهــا الضحكات التي   سكبت نداها على الذكريات
أهذي اذن بسماتي ؟ حناناً   أعدن عبوساً ورجع أنينْ ؟
أهذي اذن ضحكاتي ؟ أهذي   نهاية ماصغت من بسمات
وهذا القتيل أحقاً فقــدت   به مرحي المضمحل الدفين ؟

١٩٤٨

يوتوبيا في الجبال

« مهداة الى اختي احسان التي شهدت
معي مولدها عند عين الماء الثلجية المحدرة
بين صخور سرسنك الملونة »

تفجري يا عيون
بالماء بالأشعة الذائبه
تفجري بالضوء ، بالألوان ، فوق القرية الشاحبه
في ذلك الوادي المغشّى بالدجى والسكون
تفجري باللحون
فوق البساط السفح بين التلال
في المنحنى حيث تموج الظلال
تحت امتداد الغصون
تفجري بالجمال
وشيّدي يوتوبيا في الجبال

يوتوبيا من شجرات القمم
ومن خرير المياه
يوتوبيا من نغم
نابضة بالحياه
تفجري ، سيلي على منحدرات الصخورْ
حيث يطير الفراشْ
في نشوة وارتعاش
تفجري حيث تنام الطيور
في جنة من عطور
حيث يغطي السفح غاب كثيفْ
صنوبريّ الحفيف
تفجري نقية فوق حصى المنحدر
في عطفة الوادي العميق المخيف
في ظلال الجوز الرقيق الوريف

تحت انبساط الشجر
تفجري في الصباح
تفجري جارفة كالرياح
تفجري في الغروب
وشيّدي يوتوبيا من قلوب
من كل قلب لم تطأه الحقود
ولم تدنّسهُ أكف الركود
من كل قلب شاعري عميق
لم يتمرّغ بخطايا الوجود
من كل قلب رقيق
مستغرق في حلمه لا يفيق
إلا على حلم بعيد المدى
ليس له من حدود
حُلم تحدّى الغدا

من كل قلب لا يطيق الجمودْ
ولا صرير القيود

تفجري بيضاء فوق الصخرْ
لوناً وضوء يتحدى كل رجس البشر
تفجري لن يسأم المنحدر
سيلي على النائمينْ
وأغرقي تهويمة الظالمين
فيضي على الميتين
على قلوبٍ لا تحس الحنينْ
على عيونٍ لم تطهرْها أكف البكاءْ
على نفوس لا تحس السماء
على اكفٍ تجهل الكبرياء
سيلي بعيداً في القرى الجائمه

حيث الحفاة العراه

وحيث لا يبلغ سمع الحياه

إلا صراخ الأنفس الضارعه

إلا عواء الذئاب

في عطفة الوادي الشقي الحزين

في شاهقات الهضاب

وحيث لا تبصر عين السنين

الا أسى المتعبين

قوافل يحدو بها أشقياء

في جنة من رخاء

قوافل الجائعين

في ذلك الوادي الخصيب التراب

قوافل الظامئين

يلتمسون السراب

والماء يجتاح انزلاق السنين

قوافل للملال

يحرمها الكدُّ نقاء الجبال

قوافل مجّت رنين الفؤوس

وغيرها للكؤوس

للنوم والأحلام تحت الظلالْ

أنصاف موتى لا تحسّ الجمال

تفجري يامياه

تفجري فوق قبور البشر

تفجري في الصخر

وسجلي مأساة هذي الحياه

فوق جبين القدر

ما زالت القريةُ منذ القدمْ

أقصوصة ممزوجة بالألم
قصت أساها الرياح
على شحوب الصباح
تفجري سبلي وغطي القمم
ألقي على القصة ستر العدم
لا تذكري هذا النشيد الحزين
ما كان إلا رجع صوت وهون
أصغت اليه السنين
في لحظة ، ثم مضت في سكون !

سرسنك ١٩٤٨

وجوه ومرايا

يا كؤوس الأحلام يا من تخيلتكِ أفقاً تضمّه الأضواءُ
آه لو تدركين ، كيف أحسّ الكون صحراء خلفها صحراء
والرحيق الذي حلمت به ، كيف طوته المرارة الخرساء
كيف حين استلمت كأسي أرسلتُ دموعي ولم يمدّني ارتواء

ارتوائي، أواه من حُرَق الروح، لماذا تظل روحي ظمأى؟
ارتوائي، هذا السراب الذي يركض قلبي وراءه وهو ينأى
ارتوائي حسبته شفقاً حلواً فلما دنوتُ لم أر شيئا
ليس الا اللاشيء يصدم شوقي ويذيب الأحلام جزءً فجزءَ

ألفراغ ، الفراغ يقتلني ، أواه لو كان للوجود وجودُ
آه لو لم تحُلْ مواقع أقدامي امتداداً حدوده اللاحدود
ألسكون ، السكون يغمر فاه وغداً يغرب الهوى والنشيد
والظلام الظلام يطفيء عينيّ فماذا أحس؟ ماذا أريد ؟

أيها الليلُ ليلَ روحي ، أما من ملجأٍ من بُرُودة الظلماء ؟
ظمأٌ صارخ بأعماق نفسي لشعاع مسلسلٍ من ضياء
آه لو لم يَحُل رجائي الالهيُّ سراباً مضحلاً وبعضَ عزاء
آه لو كانت السعادة شيئاً غير هـــذه الفقاعة السوداء !

لقّبوها الحياة وهي اضطراب أبديّ ولهفة لا تقرّ
وامتداد اللانهاية لا يبدأ ، لا ينتهي ، فأين المفرّ ؟
لقّبوني « أنا » ولم يفهموني ما أنا ، ما وجودي المكفهرّ ؟
أنا ماذا ؟ تحرّق ليس يرتاح ، وظلٌّ سرعان ما سيمرّ . .

في صفاء المرآة ، حدّقت في طيفي طويلاً والشكّ في مقلتيّا
كائن شاحب يحدّق في وجهيَ ، مثلي ، محيّراً ، مطويّا
هذه ، هذه « انا » . ليس من شك فلمْ لا أمسّها بيديّا ؟
لِمَ لا أستطيع أن ألمس الذات ؟ وأمحو تحرّقي الأبديا ؟

ثم ماذا ؟ أمدّ كفّي في شوق عميق ، فلا أعانق ذاتي
صدمة صـــــدمة تمزق روحي ليس إلا برودة المرآةِ
الزجاج الجبّار شفّ ولكن عن مثال مشوه للحياة
عن كيانٍ رسمته أنا وحدي فاذا غبتُ غاب في الظلمات

الكيان الممسوخ ها أنا أمحوه كفاه هزءاً بنار أساياِ
ضربة من يدي ! تحطمت المرآة فوق الثرى وعادت شظايا
ليتني كنت صنتها . عاد وجهي ألف وجهٍ تطل منها الضحايا
ليتني كنت صنتها . ليتني أعلم كيف المرآة عادت مرايا !!

١٩٤٧

قبر ينفجر

ناديتُ أكداس الرمال: تفجري لن تدفني جسدي النقيَّ الثائرا
وهتفت يا روح الممات : تمزقي لن تحبسي قلبي الجريء الساخرا
وصرخت بالأرض الدنيئة : إرفعي من قلب هذا الطين روحي الشاعرا
هذا فؤادي نابضاً ، هـــذا دمي متفجراً تحت التراب مشـــاعرا

بالأمس في هـــذا الظلام دفنتني تحت الثرى ولففتني بصخوره
لم تسمعي دقات قلبي في الدجـى وأشحت عن إحساسه وشعوره
لم تفهمي روحي وخات سكونه موتـاً ولم يبلغك رجع هديره
ووهمت أيتهـــا الحياة فلم تَرَي في أدمعي غـــير الردى وفتوره

ما نفع أكداس التراب جميعها ؟ ألآن ينفجر التراب الغاصبُ
ألجثة الظمأى التي أودعتها بالأمس والوجه الكئيب الشاحب
ألآن ينفجران ناراً حيّة ويسابق الاعصار روحي الصاخب
والآن ينبثقان من قلب الثرى ويعود لي الأمل الجميل الذاهب

ما خلته صخراً اليكِ وجيبَهُ ما خلته صمتاً اليكِ نشيدَهُ
القبر ضجّ وضاق تحت عواطفي والطين حولي لن أطيق ركودهُ
هذا الرماد حذارِ من أعماقه فوراءه جمر نسيت رعوده
يا من حسبت النار طيناً خامداً ونسيت إعصار الصبا وخلوده

هذي العيون حذارِ منها . انها خلف الجفون عميقة أغوارها
هذي العروق حذار من فورانها فغداً سيصرخ في المدى إعصارها
هذي الشفاه حذار من سكناتها فغداً ستجتاح المدى أشعارها
هذا الفؤاد حذار من غفواته فوراء رقدته الحياة ونارها

ناديت أكداس الرمال : تفجري   وهتفت يا روح الممات ، تمزّقي
وصرخت بالأرض الدنيئة: ارفعي   أسر التراب عن الشباب المرهق
فاذا الحياة مشيحة عن صرختي   لم يأتهـا نغم اللهيب المحرق
وأنا على صدر التراب تمرد   حرٌ ، ونار توثب وتحرّق

لم يبق الآن يحطم ساعدي   هذي القيود وها أنا ، هذي يدي!
سأفجر القبر الصغير حجارة   وأطير من أمسي القريب الى غدي
وسأصرع الموت الضعيف وأنثني   بمخاوفي وسعادتي وتنهدي
وسأنثر الألحان في صمت الدجى   يا أنجم الليل المضيئة فاشهدي

ناديت أكداس الرمال : تفجري   فتفجرت تحت السماء المظلم
وجمعت أحلامي ومزّقت الثرى   بصفائها ووقفت تحت الأنجم
وفتحت صدري للضياء وسحره   وصرخت بالكون الجميل الملهم
أنا حية يا أرض . هذي نغمتي   هذا نشيد فؤادي المتكلم

١٩٤٧

ذكريات

كانَ ليل، كانت الأنجم لغزاً لا يُحلّ
كانَ في روحي شيء صاغه الصمت المملّ
كانَ في حسّيَ تخدير ووعيٌ مضمحل
كانَ في الليل جمود لا يطاق
كانت الظلمة أسراراً تُراقْ
كنت وحدي لم يكن يتبع خطوي غير ظلّي
أنا وحدي ، أنا والليلُ الشتائيّ . . . وظلّي !

*

لم أكن أحلم لكن كان في عينيّ شيءُ
لم اكن أبسم لكن كان في روحي ضوء
لم اكن أبكي ولكن كان في نفسي نوءُ
مرّ بي تذكار شيءٍ لا يُحَدُّ
بعض شيءٍ ماله قبلٌ وبَعْدُ
ربما كان خيالاً صاغه فكري وليلي
وتلفتُّ ولكن لم أقابل غير ظلي !

*

كان صمتٌ راكدٌ حولي كصمت الأبديه
ماتت الاطيارُ أو نامت بأعشاش خفيّه
لم يكن ينطق حتى الرغبات الآدميه
غير صوت رنّ في سمعي وذابا
لحظة لم أدرِ حتى أين غابا
آه لو أدركت من ألقاه في الصمت المملّ
أتراني لم أكن أمشي أنا وحدي وظلّي ؟

كانت الظلمة تمتدّ إلى الأفقِ الغريبِ
كل شيء مغرق فيهـــا كقلبي كشحوبي
ظلمـــة ممتدة كالوهم ، كالموت الرهيبِ
غـير ضوء خاطف مرّ بجفني
لحظـة لم تدر ماذا كان ، عيني
كان ضوء لونه لون خيال مضمحلّ
مرّ بي لمحـاً وأبقاني أنا وحدي وظلّي

*

كان في الجو الشتائيّ ارتعـاش وجمودْ
جمد الظل من البرد وغشّاه الركودُ
ليلة يرجف في أجوائهـــا حتى الجليد
غير دفء طاف في قلبي الوجيع
فزت فيه من شتائي بربيع
وإذا في عمق قلبي فرحة الفجر المطلّ
غير أني كنت في الليل أنا وحدي وظلي

كان في روحي فراغٌ جائمٌ كاللانهـــايه
كان ظلي صامتاً لا لحن لا رجع حكايه
باهتاً يتبع مسرى خطواتي دون غايه
غير كأس عبرت حين صرختُ
قطرة واحــدة ثم ارتويت
أتراه كان أكذوبة إحساسي المضلّ
أوَ ما كنت أنا وحدي مع الليل وظلي ؟

*

كان قلبي متعباً يسكّنه حزن فظيعُ
رقصت فيه وشدّته الى الجرح دموعٌ
صور في قعره يصبغ مرآهـــا النجيع
كان ، لكنّ يداً مرّت عليه
حملت بعض تحاياها اليــــه
باركت آلامه السوداء كانت يد طفلِ
أي طفلٍ ؟ لم يكن في الليل غيري غير ظلي !

١٩٤٨

نهم

اعبر عما تحس حيـاتي		وارسم احساس روحي الغريب
فابكي اذا صدمتني السنين		بخنجرها الأبدي الرهيب
واضحك مما قضاه الزمان		على الهيكل الآدميّ العجيب
وأغضب حين يُداس الشعور		ويُسخر من فوَران اللهيب

أعبّر عن كل حسّ أعيه
وابكي الحياة ولا أنكر
واضحك من كل ما تحتويه
وأغضب لكنني أشعر

*

يقولون شاعرة في السحاب تحلق خلف سراب النجومْ
أنانيـة لا تحسّ الوجود وان صرعته جبالُ الغمومْ
خيالية تمقت الكائنات وتخلق عالمها في الغيـوم
خريفية تـكره الضاحكين لتـدفن جبهتها في الهموم

أنانيّـة وأحب البَشَرْ
خياليـة وحياتي تسيرْ
خريفيّة وأناجي الزَهر
وعاطفتي لهب من شعور

*

يقولون : عاشقة للظلامْ تحبّ الدياجي وتهوى السكونْ
وتنشد أشعارهـا للجبال وترسم أحلامهـا للعيون
تحب الحيـاة ولكنّها تعكرها بخيال المنون
ترى جوها غيهباً حالكاً يضيق بآثامـه الملهمون

أحبّ الظـلام ولـكنني
أثور على كل أحلامكم
أحب الحيـــاة على أنني
أحقّر موكب أيامكم

*

يقولون : جامدة الحس تحيا مع الأمس في حُلُم جامدِ
يقولون : صوفيّة فالحيـــاة تنوح على حسّهـا الخامد
عواطفها جمدتْ كالنجوم كتهويمة القمر البـــارد
وتحليقهـــا كان ثم امّحى على صدر إحساسها الراكد

يقولون انكني تائهـه
ألوذ بصمتي الخفي الغريبْ
أعيش حياتيَ كالآلهـه
وقلبي شعور وروحي لهيب

يقولون دعهم غــداً يلعنون   ودعني أنا للشذى والجمالْ
أحبّ الحياة بقلبي العميق   وأمزج واقعهــا بالخيال
أحب الطبيعة حبّ جنون   احب النخيل احب الجبال
وأعشق ذاتي ففي عمقهـــــا   خيالُ وجودٍ عميق الظلالْ

وأهتف يانار قلبي الغريب
وموج أحاسيسي الثائره
اذا اتّهموا فلماذا أجيب
بغير ابتسامتيَ الساخره ؟

١٩٤٧

رماد

أهكذا داست علينا الحياه   لم تُبقِ منا صدى
لم تبق الا النـدم الأسودا   وصوتَ واخيبتاه

أهكذا لم يبق الا الرمادْ   في الموقد الذابلِ ؟
أليس من كوكبنا الآفلِ   إعاضــة تُستعاد ؟

أليس عنـــــا نبأ أو نشيد   أو همسة واحده ؟
ألم تعد قصتنا البائده   توقظ عرقاً جديد ؟

ألم يعد قطّ لنا من مكانْ   في القصة الجاريه ؟
أليس في كاساتنا الخاليه   شيء يهم الزمانْ ؟

وذلك الموكب والسائرون فوق ثرى المنحدرْ
لم يدركوا أن هوانا اندثر في عمق قبر السكون

ووقع أقدام الهوى الراحله إلى مكان بعيد
تنقلها الريح فلا تستعيد ألحانها القافله

ونحن ما زلنا نجر الحنينْ والأمس والذكرياتْ
أقيادنا مثقلة بالحياة ونحن في الميّتين

ونحن ما زلنا نسوق الرمادْ لنطعم الموقدا
وأذرع الأحلام ترجو سدى خلق غدٍ من جمادْ

وبعث ماضٍ لون أركانه من مزّق الأحلامْ
أمسى رهيباً تنكر الأيام عاريّ جدرانه

أمسي بعيداً تحجب الوديانْ   أسواره القاتمه
تعيث فيه الحدأة الساهمه   ويحكم النسيان

والريح لم تبق على بابه   حروف أسمائنا
لم تبق حتى وقع أقدامنا   في جو محرابه

وربما طافت به في ذهول   أشباحنا الباكيه
تطوف حول الغرف الخاليه   سدى تريد الدخول

أشباحنا يُضلها الاعصارْ   تحت غلاف الضباب
تظل ولهى تلطم الأبواب   والحائط المنهارْ

أشباحنا حافرة في ارتعادْ   مقبرة الذكرياتْ
لا صورة تَنْبُض فيها حياة   لا شيء غير الرماد

تنصت في رعبٍ وفي إعياءْ   عند السياج الحزينْ
فلا ترى إلا بقايا أنين   ترسله الأقبـــــاء

أشباحنا تستفهم النسيانْ   عن أمسها الضائعْ
فلا ترى إلا الردى الجائع   يقوّض البنيان

وأذرع السرو تمد الذهولْ   فوق شحوب الخراب
كأنها تقذف فوق القباب   معنى الردى والذبول

ولفظة واحدة واحده   تكررت في المكانْ
سمعتها تفحّ كالأفعوان   في الشُرَف البارده

أبصرتها مكتوبة باللهيب   في الغرف الباليه
وفوق ساق السروة العاريه   وفي الفناء الجديبْ

أحسستها تهمس مني «مضى» ملء المساء الكئيب
ابصرتها في كل ركن رهيب أبصرت لفظ انقضى

وتلتقي أشباحنا في المساء باردة واجمـــه
تنظر في تقطيبة ساهمـــه في سورة من غباء

أشباحنا تطلب ماضينـــا لا تدرك الاسرار
«كيف انقضى» ألم يعد في الدار صوت ينادينـــا ؟

أهكذا داست علينا الحياه لم تبق منا صدى ؟
لم تبق الا الندم الأسودا وصوت واخيبتاه !

١٩٤٨

الخيط المشدود في شجرة السرو

— ١ —

في سواد الشارع المظلم والصمت الأصمّ
حيث لا لون سوى لون الدياجي المدلهمّ
حيث يرخي شجر الدفلى أساهُ
فوق وجه الأرض ظلّا
قصة حدّثني صوتٌ بها ثم اضمحلّا
وتلاشت في الدياجي شفتاه

— ٢ —

قصة الحبّ الذي يحسبه قلبك ماتا
وهو ما زال انفجاراً وحياةَ
وغداً يعصرُكَ الشوق إليّا
وتناديني فتعيى،
تضغط الذكرى على صدرك عبئا

من جنون ، ثم لا تلمس شيئاً
أي شيءٍ ، حُلُم ، لفظ رقيقُ
أي شيء ، ويناديك الطريق
فتفيق .
ويراك الليلُ في الدرب وحيدا
تسأل الأمسَ البعيدا
أن يعودا
ويراك الشارع الحالم والدفلى،تسيرُ
لون عينيك انفعال وحبور
وعلى وجهك حبٌ وشعور
كل ما في عمق أعماقك مرسومٌ هناكْ
وأنا نفسي أراكْ
من مكاني الداكن الساجي البعيدْ
وأرى الحُلم السعيد

خلف عينيك ينادبني كسيرا

. . . وترى البيت أخيرا

بيتنا ، حيث التقينا

عندما كان هوانا ذلك الطفل الغريرا

لونه في شفتينا

وارتعاشات صباه في يدينا

— ٣ —

وترى البيت فتبقى لحظة دون حراك :

« ها هو البيت كما كان ، هناك

لم يزل تحجبه الدفلى ويحنو

فوقه النارنج والسرو الأغنّ

وهنا مجلسنا . . . . .

ماذا أحسّ ؟

حيرةٌ في عمق أعماقي ، وهمسٌ

ونذير يتحدّى حلم قلبي
ربما كانت . . . ولكن فيم رعبي ؟
هي ما زالت على عهد هوانا
هي ما زالت حنانا
وستلقاني تحاياها كما كنا قديما
وستلقاني . . . ».

وتمشي مطمئناً هادئا
في الممرّ المظلم الساكن ، تمشي هازئا
بهتاف الهاجس المنذر بالوهم الكذوب :
« ها أنا عدتُ وقد فارقتُ أكداس ذنوبي
ها أنا ألمح عينيكِ تطلُّ
ربما كنتِ وراء الباب ، أو يخفيك ظل
ها أنا عدتُ ، وهذا السُّلَّمُ
هو ذا الباب العميق اللون ، ما لي أحجم ؟

لحظةً ثم أراها
لحظةً ثم أعي وقعَ خطاها
ليكن . . فلأُطرقِ الباب . . . »

وتمضي لحظاتْ

ويصر الباب في صوتٍ كئيب النبرات
وترى في ظلمة الدهليز وجهاً شاحبا
جامداً يعكس ظلاً غاربا :
«هل . . . ؟» ويخبو صوتك المبحوح في نبرٍ حزينْ
« لا تقولي إنها . . . »

« يا للجنونْ !
أيها الحالمُ ، عمّن تسألُ ؟
إنها ماتت ! »

وتمضي لحظتانْ !
أنت ما زلت كأنْ لم تسمع الصوتَ المثيرْ

جامداً ، ترمق أطراف المكان
شارداً ، طرفكَ مشدود الى خيطٍ صغير
شُدَّ في السروة لا تدري متى ؟
ولماذا ؟ فهو ما كان هناك
منذ شهرين . وكادت شفتاك
تسأل الأخت عن الخيط الصغير
ولماذا علّقوه ؟ ومتى ؟
ويرنُّ الصوت في سمعك : « ماتت . . »
« إنها ماتت .. » . وترنو في برودٍ
فترى الخيط حبالاً من جليد
عقدتها أذرع غابت وواراتها المنونْ
منذ آلاف القرون
وترى الوجه الحزين
ضخّمته سحب الرعب على عينيك . « ماتت .. »

هي « ماتت . . » ؟ لفظة من دون معنى
وصدى مطرقة جوفاء يعلو ثم يفنى
ليس يعنيك تواليه الرتيبُ
كل ماتبصرُهُ الآن هو الخيط العجيب !
أتراها هي شدّته ؟ ويعلو
ذلك الصوت المملُّ
صوت « ماتت » داوياً ، لا يضمحلّ
يملأ الليل صراخاً ودويا
«إنها ماتت » صدى يهمسه الصوت مليا
وهتاف ردّدته الظلماتُ
ورَوَتهُ شجرات السرو في صوت عميقِ
« انها ماتت » وهذا ما تقول العاصفات
« انها ماتت » صدى يصرخ في النجم السحيق

وتكاد الآن أن تسمعه خلف العروق !

— ٥ —

صوت « ماتت » رنّ في كل مكانِ
هذه المطرقة الجوفاء في سمع الزمان
صوت « ماتت » خانق كالأفعوان
كل حرفٍ عصب يلهث في صدرك رعبا
ورؤى مشنقة حمراء لا تملك قلبا
وتجنّي مخلبٍ مختلجٍ ينهش نهشا
وصدى صوت جحيميّ أجشّا
هذه المطرقة الجوفاء : « ماتتْ »
هي ماتت ، وخلا العالم منها
وصدىً ما تسأل الظلمة عنها
وصدىً تصغي الى وقع خطاها
وصدىً تبحث عنها في القمرْ

وسدىً تحلم يوماً أن تراها
في مكانٍ غير أقباء الذِكَرْ
إنها غابت وراء الأنجمِ
واستحالت ومضةً من حلم

— ٦ —

ثم ها أنت هنا ، دون حراكْ
متعباً ، توشك أن تنهار في أرض الممرّ
طرفك الحائر مشدود هناكْ
عند خيطٍ شُدَّ في السروة ، يطوي ألف سرّ
ذلك الخيط الغريبْ
ذلك اللغز المريبْ
إنه كل بقايا حبّك الذاوي الكئيب .

— ٧ —

ويراك الليل تمشي عائدا

في يديك الخيطُ ، والرعشةُ ، والعِرْق المُدَوّي
« انها ماتت . . » وتمضي شاردا
عابثاً بالخيط تطويه وتلوي
حول ابهامك أخراه ، فلا شيءَ سواهُ
كلُّ ما أبقى لك الحبّ العميقُ
هو هذا الخيط واللفظ الصفيق
لفظ « ماتت » . وانطوى كلُّ هتاف ما عداه !

١٩٤٨

للقارئ ...

وردت في سياق القصائد بضع كلمات أوربية ، قد يهم القارىء أن يقرأ لكل منها شرحاً موجزاً :

يوتوبيا Utopia

كلمة أغريقيـــة معناها « لا مكان » استعملتهـــا الدلالة على مدينـــة شعرية خيالية لا وجود لها إلا في أحلامي ، ولا علاقة لهذه المدينة بيوتوبيا التي تخيلها الـكاتب الانـكليزي توماس مور في كتاب ألفه باللغة اللاتينية سنة ١٥١٦ ورسم فيه صورة سياسية أدارية للجزيرة المثلى كما يريدها هو ، قياساً على جمهورية افلاطون .

ديانا Diana

عند اليونان القدماء ، إلهة القمر ، وحامية الصيد . كانوا يتخيلون انها تسوق عربة القمر البيضاء كل مساء عبر السماء .

نارسيس Narcisse

زهرة النرجس . في الاساطير اليونانية القديمة ان نارسيس كان شاباً فاتناً شديد الغرور بجماله ، فعاقبته الآلهة على كبريائه بأن جعلته يعشق

صورته ، بعد ان رآها منعكسة في ماء بحيرة صافية ذات يوم . ثم رقت له فحولته الى الزهرة التي ما زالت تحمل اسمه .

ابولو Apollo

إله الوحي والفن، وقائد عربة الشمس في الفضاء عند قدماء الاغريق، وهو شقيق ديانا التي مر ذكرها .

لابرنث Labyrinth

كلمة اغريقية الأصل ، معناها بناء ذو مسالك معقدة وأبواب لا حصر لها متصلة بعدد كبير من الممرات والدهاليز والاقباء ، بحيث إذا دخله انسان لم يملك الخروج منه .

وقد استعملت هـذه اللفظة في قصيدة « الافعوان » اسماً لطريق شيده «أمير غريب الطباع . . ثم مات الأمير . . وابقى الطريق ..» وربما كان باعث كلمة امير في ذهني ، اقتران كلمة - لابرنثوس - بشبه حكاية أسطورية تتعلق بتاريخ مصر القديم فقد حكي عن هيرودوتس انه حين مرّ بمصر رأى بناء غريباً هائل الضخامة أشبه بلغز كبير محيّر، من دخله لم يجد مخرجاً منه، شيده أحد ملوك الاسرة الثانية عشرة .

ومن يدري ؟ لعل الملك الذي شيد هذا البناء أراد ان يتخذ منه مخبأ لا يدركه فيه « أفعوانه » الخاص ... !

هياواثا Hiawatha

بطل أسطورة من أساطير هنود الشمال في أميركا اختارها الشاعر الاميركي لونكفلو موضوعاً لملحمة شعرية كتبها سنة ١٨٥٥ . والجزء الذي تهمنا الاشارة اليه هنا من هذه الملحمة ، أن زوجة هياواثا الشابة قد ماتت على اثر شتاء قاس انشب ثلوجه واعاصيره في القرية ، منزلاً بسكانها الجوع والحمى والموت . ولذلك استعملت كلمة « هياواثا » في قصيدة « لنكن أصدقاء » رمزاً لصرخات الاستغاثة والشكوى في كل أرض يموت سكانها مدفونين في الثلج جائعين محمومين .

فهرس

صورة الغلاف

بريشة الفنان الاستاذ

خالد الرجال

للشاعرة :

عاشقة الليل

ديوان شعر صدر سنة ١٩٤٧

صحح ما يلي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
[illegible]	٦	ساخرٌ	ساخر ،
[illegible]	١٣	ألموتُ ألموتُ ألموت	ألموتُ ألموتُ ألموتْ
[illegible]	١٠	البساط	انبساط

~~٣٥٠ فلس~~

مطبعة المعارف . بغداد